القسم الرابع
عصر شرلمان

الفصل الحادى عشر

الأوضاع الأوربية

١ ـ الغزوات الأنجلوسكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهى حقبة تغشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ما تم فى السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن، ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة ، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن فى النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المعتمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترة لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى[1] . فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرث إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التعاقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلفة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطىء الصخرية سهلا ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

(١) انظر الخرائط المساحية لبريطانيا الرومانية

مصبات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التى ترجع إلى العصر الرومانى المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذى يمتد طويلا إلى الداخل يكوّن منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكمبريدج. « وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الراكدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطيعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه[1] » .

جغرافية بريطانيا

أما فى داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرعاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترة كانت تغطيه فى عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحكمت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير فى تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون. وكان مصب الهمبر الذى تتصل به المستنقعات من الجانبين تحف به من الغرب غابة إلمت (Elmet) ، التى كانت تمتد إلى منحدرات تلال پينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقع والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترة) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين آنجليا الشرقية وبين المنطقة

---

(١) انظر ح . ا . وليمسون فى : « The Evolution of England » (أكسفورد ١٩٣١) ص ص ـ ٢ ع ع .

الوسطى ، وذلك مثلما كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من الفنز (Fens) إلى إينج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين و نشستر وهاستنجس ، غير تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال الساوث داونز (South Downs) محاذية للبحر . ويقول وليمسون إنه : « فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر من السنة[1] » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات الذى تتبقى منه إلى اليوم غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) ـ يسد الطريق إلى وست دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالا من ساوثهامبتون واتر (Southampfon Water) . فإذا لم يغب عن بالنا انتشار المستنقعات والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود الترابية مثل بوكرلى دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ، وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثمبريا ومرسيا وويسكس بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً فى رقعتها فضلا عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

(١) ج . ا . وليمسون بالموضع السابق .

التعاقب بوصفها أقوى وحدة بإنجلترة فى أثناء القرن السابع والثامن والتاسع . ولـكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التى أحرزت تفوقاً سياسياً حقا ، على أن سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الـكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين برنيكيا وديرا مزقتها من الداخل ، على الرغم من أنها كانت تضم وهى فى أوج عظمتها شرق اسكتلندة جنوبى نهر فورث وشمال إنجلترة حتى نهر ريبل ونهر يوركشير أوز ، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنيين تحدوا ملوكها المسيحيين . ومما عجل باضمحلالها الذى بدأ بقوة فى أثناء القرن الثامن ، غارات النهب المخربة التى قام بها السكندناويون القدماء المسمون أهل الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة ، فـكانت خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة ، كما أنها شغلت المناطق المترامية بالميدلاند الغربية التى كانت مدار نزاع دائم ، والتى لا شك أنها كانت فى أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج الـكلت والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . وإذ سيطر عليها من تامويرث ، مركز إنجلترة الجغرافى الواقع على واتلنج ستريت ، زعماء أكفاء قساة أشداء ، فإنها بشرت فى لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثى لإنجلترة يمتد إلى عصور مستقبلة ، وتـكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلا عن لتشفيلد ، عاصمة للميدلاند ومستقراً لـكرسى الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها فى بعض الفترات على سكان منطقة پيك فى الشمال وعلى سكان تشيتشير وجنوب لانـكشير وعلى ورسترشير هويكاس فى الجنوب ، على حين أن الحدود الطويلة التى كانت تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوفا ، وهذا السد من صنع أوفا أشهر ملوك مرسيا ، وهو الذى تبادل الرسائل مع شرلمان ، كما أنه أهم شخصية بإنجلترة عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترة ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجح أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جدية قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال المماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويدا . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطىء أفضى إلى ذيوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترة ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلين إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبي يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا. فمنذ عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغتها تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكسونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التى تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التى وجهت إلى كيان الحياة البريطانية فى العصر الرومانى ، هى الغارة الضخمة التى حدثت فى ٣٦٧ . ففى تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكيتيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة فى إنجلترة من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال فى المواضع الرومانية المنعزلة ، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالى ظل يشهد الاضمحلال يدب فى حضارة الجزيرة متواصلا ، وإن كان ذلك بصورة متقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفى المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والمخيمات المنصوبة فوق أعالى التلال (التى ترجع إلى عهد ماقبل الرومان) فاتخذت للمرة الثانية ملتجأ للسكان . وتمخض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلى ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن فى جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة فى الجهات المتفرقة لنكسة مؤقتة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوربية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافا ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاتصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التى خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التى تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدينة ،

والتى يصادفونها فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتقرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذى استشعره زعيم مثل ألاريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوڤيس فى التلاؤم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومبارديين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المتناثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس المخربة والأعمدة المتبقية عن المبانى الرومانية. إذ أثارت فيهم إحساساً بالخوف والنفور المقترن بالقلق ، فخيل إليهم أنها يكمن بها أشباح من الموتى بل قوى أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان فى القاعات الحجرية والقبور التى ترجع إلى العصور الخالية : وفضلا عن ذلك فإن ما أقامه السكسون من مستقرات كان يتجنب فى العادة المواضع الرومانية . وكأنى بالشعور العام فى مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً تجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطعات إنجلترة الشرقية والجنوبية ، التى يظهر أن ما كان لدى الكلت فيها من أسماء أماكن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا ويلزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد فى هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا عليها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها ، كما أنه حدث فى روسيا ونورمبريا وويسكس ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدريج إلى الاتفاق مع المغيرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكسونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه فى ذلك شأن الغاليين الرومان فى ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تفلت من يده نهائياً فى أثناء فوضى الغزو ومحنته وبعدها .

حضارة نورثمبريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوربية صورة مماثلة عندما نتأمل التطورات التالية التى ألمت بالممالك الأنجلوسكسونية ، ذلك أن ممارسة طرق الرومان فى الإدارة أسهمت فى نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية[1] ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هى التى تقوم بهذه الجزيرة (يعنى بريطانيا) بوظيفة روما وعملها ، وكان لها أثر فى تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين . كما أن سلطة كل ملك سكسونى ناجح كانت تدعمها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية فى تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التى وهبها الملوك الأتقياء الأراضى والضياع ، قامت بدور كبير فى نمو العوامل الإقطاعية التى تتمثل فى ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولا شك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدى الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوربية ، ما بلغته نورثمبريا فجأة من التفوق الأكيد فى حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلا أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليماً متخلفاً متأخراً فى حضارته بالقياس إلى غالة وأسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

(١) انظر ما سبق ص ٧٧ .

صلتها بحاضرة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم تذوى الجزيرة شيئاً فشيئا من دائرة وعى روما وبيزنطة . على أن بعثة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما للعلوم فى الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها فى الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المكانة فى المدنية الأوربية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل فى طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيده (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه فى كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الخالصة يسمو محلقا فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الاضمحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال فى أثناء غارات الفيكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران : ولكن ألكوين ورفاقه حملوا من قبل مشعل إلهامها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة الكارولنجية . ثم سدد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب الدانيمركى ، حينما أسهمت مؤثرات من القارة فى زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم فى عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج المعمارية فى بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن العمارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تحدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لكاتدرئيات درهام وونشستر الفخمة : وكل ما تبقى لنا عن روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من الكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف فى أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التى خلفها النورمان والتى كثيراً ما تكون جامدة النمط . وذلك كله متى وازناها بما بقى عن السكسون من نحائت ، وبالفنون الصغرى التى كانت تمارس بإنجلترة فى تلك الأزمان .

٢ — المد الصقلبي

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوربا ، بلغت ذورتها قبل نهاية العصور المظلمة . وهى عملية لا تقل فى خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوربية عن كل ما سبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضى الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتى إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هـذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلما يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار ، أو عن نهر يتلوى جامعاً بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلحظوا تسلل الصقالبة فى هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربى . لم يكن عملهم غارة رائعة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعة سريعة انبعثت من آسيا كاندفاعة الهون . وإنما الذى تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل فى بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادى لجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسيويين ، ولكنها كانت تزداد فى كل يوم عدداً وتمتص فاتحيها ؛ لم يقم بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسي ، ولذا كانت تنتزع من هنا إلى هنالك فى المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتى لخدمة أغراض الخاقانات المستبدين ، وهى مدٌ طامٍ من السكان طغى على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان

يجتاز فى مسيره شرقاً سهول جنوب الروسيا ، حين يمنحها البدو الرحل من طلاب النهب فترة وجيزة من الهدوء .

على أن أعماق مستنقعات البريبيت التى يخيم عليها الضباب والتى يميل غالبية العلماء فى الوقت الحاضر إلى اعتبارها الموطن الأصلى للصقالبة ، كانت تقع فى ذلك الحين على مسافة بعيدة من مرمى أبصار الإغريق والرومان لا تقل عن بعد السهوب الأسيوية النائية ، التى كان فى إمكان الناظر أن يتبين فيها بصعوبة شخوصاً صغيرة راكبة مع قوافلها تسير فوق منبسط هائل من السهول . والواقع أن الصورتين متكاملتان تتم الواحدة منهما الأخرى ، وذلك لأن سكان المستنقعات فى پوليزيا ، وهو الاسم الذى اشتهرت به هذه المنطقة الصقلبية البدائية فى العصور الوسطى ، — يمكن اعتبارهم أحد تلك الأجناس المتعسة التى وضعها سوء حظها على حوافّ منطقة السهوب والتى جعلتها نزعتها السلمية وحياتها المستقرة فريسة للحشود البدوية الشرسة[1] . وهناك من الإشارات المتناثرة عند بعض المؤلفين القدماء ما يصورهم لنا شعباً شكلته المتسعات الصامتة من المستنقعات المملوءة بالقصب والبرك الراكدة ، وتمثلهم أسرابا وعائلات منعزلة من صيادى السمك والمزارعين ، وهم ينزلون مناطق متناثرة أخلوها مما كان بها من مستنقع أو غاب ، وتجعلهم شعباً بدائياً أصهب الشعر وأناساً خجولين يتجرون فى الفراء والشهد وعليهم القليل من الثياب ، وهم يفرون من مطارديهم بالاختفاء فيما يجاورهم من ماء أو غياض : وهم إلى ذلك مهرة فى الرماية وحرب العصابات وجند ممتازون متى كانوا فى خدمة الأجانب .

ومن الغريب أنهم أمة مجهولة بصورة تبعث على الدهشة . وليس لهؤلاء

---

(١) عن تحديد هـذا الرأى ، انظر ما كتبه ل . بيدرلى فى Revue des Etudes Slaves مجلد ٢ ص ص ١٩ ع ع .

الصقالبة الأصليين تقاليد مأثورة ، ولا أنساب ميثولوجية. ومن عجب أن ما يرجع إلى عصورهم المتأخرة من مأثور شعبي (Folk - Lore) ، يحتفظ أساساً بذكريات شعوب أجنبية استولت على أخيلة الصقالبة . وفيها يبدو شعب الآفار الرهيب فى صورة المردة أو الوحوش ، على حين أن الإمبراطور تراچان فاتح داكيا (ترنسلڤانيا ورومانيا) فى القرن الثانى للميلاد صار فى أساطير البلقان القيصر تراچان العظيم ، الذى يفيض إليه الذهب الوهاج والفضة الصافية من سبعين عيناً . والواضح من هذا ومن غيره من الشواهد ، أن الصقالبة بدءوا فعلا ينسابون من منطقتهم البدائية الأولى قبل القرون الأولى للميلاد حيث شرعوا يتسربون جنوبا نحو الدانوب على كل من جانبى جبال الكربات ، واتجهوا غربا مجتازين السهول التى تمتد بين نهرى الإلب والڤستولا وساروا شرقاً متجهين نحو حوض الڤولجا وبحر آزوف . ولاشك أن الموقع المتوسط لموطنهم الأصلى — الذى يقع على برزخ شبه الجزيرة الأوربية (إن جاز مثل هذا التعبير)، وهو العنق الذى كونته الطرق المائية الكبرى بمنطقة غرب الروسيا — قد جعلهم يتعرضون لما كان لبحر البلطيق أو البحر الأسود من مؤثرين حضاريين بالغى التناقض ، على حين أن الاختلاط العنصرى بين الدماء التيوتونية من جهة والأجناس الأسيوية من جهة أخرى قد ساعد على زيادة الفروق التى قدر لها فيما بعد أن تميز القوميات السلاڤونية المختلفة بعضها من بعض وتفرقها أقساماً .

على أن المد الصقلبى ظل يتزايد دون أن يلحظه أحد من مؤرخى الحوليات (Ammalists) . حتى استيقظت بيزنطة قبيل زمن چستنيات ، وانتبهت إلى ما يتهددها من خطر صقلبى . ذلك أن غارات الصقالبة ظلت تزداد شدة طوال القرن السادس وتنزل الخراب والوبال بمناطق تراقيا وتساليا ومقدونيا ، بعد اختراقها خط القلاع المحكم الذى أقامه چستنيان بقصد الدفاع

عن الدانوب وحماية الطرق الحيوية التى كانت تربط بين أجزاء إمبراطوريته الغربية والشرقية . على أن مركز إعصار عاصف ما لبث أن استقر فى هنغاريا فى صورة الآفار ، فانطلق يعصف بأمواج الصقلبى ويحيلها إلى تيارات عنيفة ، بما وهبها من قوة دافعة جديدة خطيرة ، وبما نثره منها وبدده فى صورة رشاش تطاير منتثراً فوق وسط أوربا . ويبدو أن هذه هى الفترة التى تم فيها صبغ بلاد اليونان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب على ذلك من شطر روما القديمة عن روما الجديدة (بيزنطة) . وعلى الرغم من الهجمات الباسلة التى بذلها القادة البيزنطيون لرد اعتداءات الصقالبة ، فإن حد الإمبراطورية من جهة الدانوب لم يعد له أهمية تاريخية بعد (٦٠٠) . وقد صدق المؤرخ إيزيدور الآشبيلى حين قال : « إن الصقالبة انتزعوا بلاد اليونان من الرومان » . وذلك لأن السكان الرومان والناطقين باليونانية دفعوا إلى حافتى شبه الجزيرة المطلتين على البحر الأدرياتى وبحر إيجة . أجل إن مدينة سالونيك التجارية العظيمة التى كانت تحميها أسوارها الضخمة ومجانيقها القوية وتقيها الذراع القومية للقديس ديمتريوس الذى هو قديسها الحارس ، قد صمدت فى وجه الغزاة ، ولكن الصقالبة احتلوا رغم ذلك منطقة مقدونيا[1] المحيطة بها ، وأخذ فيض الصقالبة يتدفق إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، ظلت مراكز للحضارة والحياة الهلينية ، وحافظت على استعدادها للمشاركة فى الفتوح البيزنطية التى تمت بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن حدث فى أقصى الغرب أن هرع سكان مدينة سالونا الرومانية عاصمة دالماشيا من مدينتهم التى تعرضت للنهب والتخريب ، فهبطوا الى أسفل التل ، يلتمسون ملاذا فى داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم فى أسپالاتو . بينما فر آخرون إلى

---

(١) بلغ من شدة ازدحام هذه المنطقة بالصقالبة عند حلول القرن السابع الميلادى ، أنها أصبحت تعرف باسم « اسكلافينيا » .

الجزر والخلجان الأدرياتية فأقاموا بذلك حافة منعزلة من اللاتينية ظلت قائمة حتى العصور الحديثة . إذ لم يمت آخر ناطق « باللغة الغريبة » إلا فى ١٨٩٨ ـ ولم تكن لغته إلا سلالة منحطة من اللسان الرومانى القديم[١] ، والظاهر أن مجتمعات ناطقة باللاتينية ، ظلت تعيش فى داخلية البلاد بنفس الولايات السابقة بكل من شمال الدانوب وجنوبه ، وأنه يرجع إلى تأثيرها ظهور اللغة الرومانية الحديثة .

انتشار الصقالبة

وفى تلك الأثناء كانت الزوبعة الآفارية فى دورانها اللولبي من مركزها بهنغاريا تقذف بالجموع الصقلبية فى جميع الاتجاهات ، وتشتت قبائلهم وتنزل شراذم منهم بالأطراف النائية ، فاستقر بعضهم غرباً فى كارينثيا والتيرول ، وأقام بعضهم الآخر فى الشمال على امتداد نهر الإلب والسال ، واستخدمت رجالهم جنداً على محيط الدائرة الآفارية مسلطة إياهم على جند الباڤاريين واللومبارد والسكسون والفرنجة . على أن مدى سلطان الشعوب البدوية ، الذى كان يمتد بين حين وآخر من البيلوپونيز إلى البلطيق ، إنما يماثل ما كان للإمبراطوريات الألطائية بآسيا من نفوذ ، وهو قريب الشبه أيضاً بنفوذ أسلافهم فى أوربا ، وأعنى بهم الهون . وكان حكم الآڤار يتمشى تمشياً صادقاً مع أصولهم فى بلاد السهوب ، إذ ينطوى على الاستبداد والنهب ويعتمد على القوة الوحشية ويقوم على غارات الرعب والإرهاب ، ويتعرض للانهيار الفجائى . وعند مستهل القرن السابع ثارت عليهم الشعوب الخاضعة . فإن تاجراً من الفرنجة اسمه سامو قام بتنظيم الصقالبة النازلين بوادى نهر مين وتأليبهم على

(١) انظر ل . نيدرلى فى (Manuel de L'antiquite Slave) ، حـ ١ ص ٦٨ (باريس ١٩٢٣) .

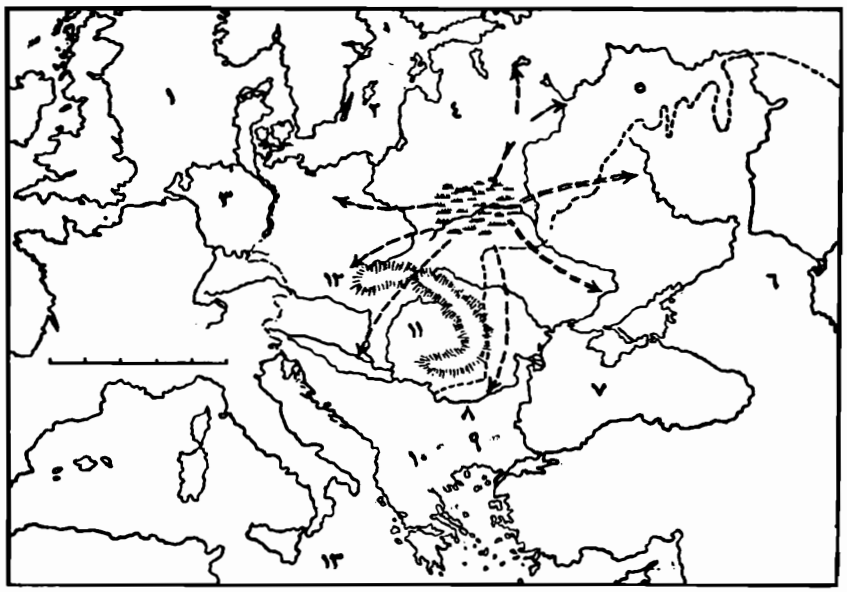

١٣ — خريطة انتشار الصقالبة

١ ـ بحر الشمال
٢ ـ بحر البلطيق
٣ ـ السكسون
٤ ـ القوانيون
٥ ـ شعوب فنلندية
٦ ـ الخزر
٧ ـ البحر الأسود
٨ ـ البلغار
٩ ـ تراقيا
١٠ ـ مقدونيا
١١ ـ الآفار
١٢ ـ نهر الدانوب
١٣ ـ البحر المتوسط

الآفار واستطاع الإبقاء على مملكته بنجاح إزاء كل من الآفار والفرنجة . وما لبث الكروات والصربيون أن حذوا حذوه ، وأخيراً كون البلغار على الدانوب الأدنى مملكة مستقلة . على أن الآفار ظلوا فيما عدا مملكة سامو مسيطرين فى كل مكان على جميع الفلاحين الصقالبة حتى امتصهم السكان المحيطون بهم . وتتجلى فى تنظيم هذه الدول البلقانية إبان العصور الوسطى شواهد واضحة تنبىء بوجود النظم الأسيوية .

وتعد بلغاريا مثالا بارزاً على تلك الأوضاع ، إذ إن شعبة غربية من البلغار ، وهم شعب وثيق الصلة بالهون نزلوا أول الأمر فيما نعلم على نهر الدون ، قد بلغت حوالى نهاية القرن الخامس سواحل البحر الأسود الشمالية الغربية فوق مصب الدانوب . فلما أن حرروا أنفسهم من نير الآفار حوالى ٦٤٠ ، اجتازوا الدانوب فبسطوا بذلك رقعة ممتلكاتهم جنوبا ، حتى أصبحوا على مسافة تقارب مائة وخمسين ميلا من أسوار بيزنطة ، وأخذوا يحكمون ، بوصفهم طبقة محاربة ، الصقالبة المشتغلين بالزراعة وينتزعون منهم الجند اللازمين لإنشاء إمبراطورية قوية البأس ، لم تلبث عند نهاية القرن التاسع أن امتدت إلى البحر الأدرياتى فى الغرب ، وبلغ طرفها الجنوبى جبل الپيندس (Pindus) . وكانت هذه الإمبراطورية البلغارية الأولى عاملا فاصلا تحكّم فيما تلا ذلك من تاريخ البلغار . فلولا خاقانات البلغار الأشداء وأرستقراطيتهم المقاتلة لما استطاع المهاجرون الصقالبة بهذه المناطق المضى فى مقاومتهم المنظمة للجهود الدائبة التى بذلتها الإمبراطورية الرومانية قرناً فى إثر قرن بما لها من جيش محترف وخطط حربية بارعة ، لاستعادة خط حدودها القديم على الدانوب والمحافظة عليه ، والإبقاء على ما يقع على شاطئيه من الأقاليم ، ولولاهم أيضاً

ما ظهر إلى الوجود ما كان لبلغاريا وكرواتيا والصرب من أمجاد إبان العصور الوسطى .

زوال إمبراطورية الآفار

وقد تمخض تداعى قوة الآفار ، التى تواصل اضمحلالها حتى تم تدميرها النهائى على يد شرلمان ، عن آثار سيئة فى كل مجموعة الدول الآفارية الصقلبية. إذ انحسر مد مملكة الصقالبة المتجه غرباً ، وارتد منسحباً من أعالى النمسا ، كلما اندفع إلى الأمام چرمان باڤاريا[1] . وإلى الشمال من ذلك ، استقر ما يزيد على ثلاثين قبيلة صغيرة من الصقالبة فى خط يمتد من الدانوب إلى مكلنبرج ، وهم على حال من التفرق والعيش فى مواطن متناثرة بين المستنقعات والغابات . وقد أصبحت بوهيميا التى تحيط بها الجبال من كل الجهات مملكة قوية الشأن ، غير أن الصقالبة النازلين على نهر الإلب قد تعرضوا للإبادة أو تحولوا إلى چرمان ، ولم يكن استيلاء شرلمان على سكسونيا الغربية إلا تمهيداً لتقدم جديد قامت به دولة غربية ، ثم تواصل الفتح عنيفاً عاتيا على امتداد عدة أجيال . ودأب الڤيكنج من اسكندیناوة قراصنة كانوا أو تجاراً ، على الإغارة على مناطق الصقالبة على شواطىء البلطيق ، فأقاموا بها معاقل دائمة . واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويداً رويدا على طريق التجارة العظيم الذى يتألف من شبكة الطرق المائية الروسية التى تربط بين بحيرة لادوجا وبين البحر الأسود (Euxine) ، ثم توغلوا جنوباً حتى أسسوا بعد (٨٠٠) بزمن قصير مستعمرة كييف ، وهى نواة الإمبراطورية الروسية فى المستقبل .

---

(١) انظر الفصل الرابع عشر بعنوان حملات الآفار .

٣ — بيزنطة والبحر المتوسط

كان لأحداث القرن السابع آثار كبرى غيرت تماماً مركز بيزنطة فى أوربا فى ذلك الزمان. إذ سرعان ما أعقب النصر النهائى — الذى أحرزته روما على فارس فى (٦٢٨) والذى يعد من أعمال هرقل الباهرة — موجة الغزو العربى الذى هز أركان كل من هاتين الإمبراطوريتين العالميتين السابقتين روما وفارس. ولم تنقض على وفاة هرقل عشر سنوات حتى ضاعت مصر والشام من يد الدولة. حتى إذا فتح المسلمون الولايات الإفريقية، وتقدم اللومبارد فى إيطاليا، واصطبغ البلقان بالصباغ الصقلبى، نظرت دولة الروم عند نهاية القرن السابع فإذا رقعتها قد انكمشت انكماشاً شديداً من جميع أبعادها. ولم تزدها الثورة الإيطالية والفتح الفرنجى لإيطاليا إلا ضعفاً وانتقاصاً لنفوذها فى الغرب، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار تاريخ بيزنطة شيئاً مستقلا عما يجرى من تطور فى دول غرب أوربا التى لم تعد تتأثر تأثراً شديدا — كما لاحظ المؤرخ بيورى — بما كان يحدث فى شرق إيطاليا وجنوب الدانوب.

على أن السنوات التى سبقت ارتقاء ليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) العرش تعتبر من أحلك الساعات فى عمر بيزنطة الطويل. إذ إن حيويتها أخذت فيما يبدو تتداعى بسبب انكماش حدودها. فاضمحلت الآداب والفنون وهبط مستوى التعليم، وازدادت الخزعبلات انتشاراً بين جميع الطبقات. ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مركز قلق، الأمر الذى اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً، رغبة فى الإبقاء على وجود بيزنطة نفسه، فقد قوبل ذلك بتحدٍّ عنيف من المعارضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تعاقب الأباطرة على العرش — حيث تولى الملك ما لا يقل عن سبعة منهم فى عشرين سنة. وكان الكثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء ملاك الأراضى بالإمبراطورية.

إصلاحات الأسرة الإيسورية

إن قيام البيت الإيسورى القوى ليسجل بالفعل اتجاهاً جديداً فى شئون بيزنطة . إذ يتوارى عن الأنظار الصراع على الملك بكل مايورث البلاد من فوضى ، ولا يعود إلى الظهور إلا فى مستهل القرن التالى . أما العاصمة التى هددها الأمويون بكل مايملكون من قوة فى أثناء الحصار العظيم الذى ضرب عليها فى (٧١٧ ـ ٧١٨) ، فقد دافع عنها ليو ، وهو الجندى المحنك المجرب دفاعاً مجيدا وكان ذلك فى نفس اللحظة التى استهل فيها حكمه [١] ، ومنذ تلك اللحظة وقفت الإمبراطورية على قدميها على امتداد الجبهة الإسلامية ، حتى تراجع مركز الاضطراب قليلا فى آسيا ، عند انتقال مقر الملك من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين (٧٥٠ م) . ومما ينبغى أيضاً إضافة الفضل فيه إلى الإيسوريين قيامهم بإصلاح مالية الدولة على أسس سليمة و تشجيعهم التجارة وإجراؤهم تطويرا صالحاً للنظام العسكرى بالولايات ، لدرء ماتتعرض له الثغور (الحدود) من أخطار . وهى إصلاحات ومنجزات يمكن مقارنتها بما أتاه آل هرقل والمقدونيون وغيرهم من منقذى بيزنطة فى ساعة العسرة . ولذا فإن الأسرة من هذه الناحية يمكن اعتبارها متمشية مع مادرجت عليه الأسرات الإمبراطورية من تقاليد . على أن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد. إذ الواقع أن الإيسوريين ينسب إليهم فضل اتخاذ سياسة ثورية ، وأنهم مبتدعون بارعون ، استطاعوا بفضل قوة مثاليتهم الأسيوية الأجنبية أن يغيروا مجرى الحياة فى بيزنطة فترة قرنين من الزمان . ثم قدر لتلك الحياة أن تنساب مرة أخرى فى مجاريها المعتادة . إذ إن الفلسفة الكلية العامة (Weltanschauung)

---

(١) انظر ماقبله ص ٢٥٧ بعنوان الخطر على بيزنطة .

الحضارة بأكملها ، إنما هى تيار أقوى من أن يستطيع بضعة أفراد تغييره ، وذلك لأن ماتحداه الحكام الإيسوريون لم يكن سوى تراث البحر المتوسط بأجمعه .

ومن أهم عناصر ذلك التراث ، النظام القانونى الرومانى ، الذى كان يتحكم فى وجوه كثيرة جدا من حياة بيزنطة الاجتماعية . فقانون الأكلوجا ، الذى أصدره الإمبراطور ليو الثالث ، وهو مجمل لكل القوانين البالغة الأهمية ، يدل على تغيير خطير فى القانون الرومانى . وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون من الرومان مصادر موثوقا بها ، بل صار التشريع والفقه قائماً على «الوحى» ، والتمست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الأناجيل. وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدنى ، يمكن فسخه بالتراضى المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ماقررته المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق . ويتجلى نفوذ الكنيسة ورجالها فى أمور أخرى أيضاً ، منها مثلا زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية وإحلال عقوبة التشويه وبتر الأعضاء محل عقوبة الإعدام بوصفها أقصى عقوبة فى القانون ، رغبة فى منح المذنب فرصة للتوبة . ومما له مغزاه أن إضفاء الصبغة المسيحية على الدولة بهذه الصورة قد توقف قبيل نهاية القرن التاسع الميلادى ، وحل محله الرجوع إلى اتخاذ مبادئ قانون جستنيان . فعندئذ تتجلى بيزنطة المدينة المقدسة وحامية العقيدة السلفية الصحيحة فى صورة أخرى بالغة الأهمية : هى أنها وارثة ومستودع تقاليد روما الإمبراطورية الوثنية .

وعن هذا المصدر تجىء كذلك فكرة عميقة الجذور فى العالم البيزنطى ، وهى فكرة عدم إمكان الفصل بين الكنيسة والدولة [1] . وذلك أن سلامة

---

(١) انظر ص ١٦٤ بعنوان « الحياة فى العاصمة البيزنطية » .

الإمبراطورية ورخاءها كانا يتوقفان على مالها من موارد روحية فضلا عن المادية ، وأن نفوذ السلطات المدنية كان يعززه إقرار رجال الدين له . على أن بعض الأباطرة من أمثال الإيسوريين المناهضين لعبادة الصور ، والذين تدخلوا فيما شاع بين السكان من معتقدات ـ كالمقدسات الدينية والأيقونات وتبجيل هيئات الرهبان ـ إنما كشفوا عن وجود ازدواج فى السلطات : أى إمكان حدوث صراع بين السلطتين العلمانية والإكليركية ، وهو وضع كان يخالف صراحة سياسة بيزنطة العامة ، ولذا كان محتوم الفشل نتيجة لذلك . وهذا الضرب من رجحان كفة الميزان فى صالح الدولة ، تمخض عن حركة مضادة بين أتباع ثيودور رئيس دير ستوديوم (مات فى ٨٢٦) ، الذى طالب بأن يكون للكنيسة استقلال داخلى تام ، بل إنه أيد البابا على إمبراطوره . على أن هذه الأفكار كانت غريبة أيضاً عن التفكير البيزنطى ، ولم يلبث هذان الرأيان المتناقضان أن اختفيا من الوجود فى النهاية ، فتهيأت الفرصة مرة أخرى للإمبراطور كيما يمارس سيادته على شئون الكنيسة ، وهى مع ذلك سيادة يلطف منها استعمال الحكمة والأناة فى معالجة حساسية الشعب وميله بطبعه إلى الاستثارة السريعة .

نضال مناهضى عبادة الصور

وكان آخر تحد لقيته المعايير البيزنطية هو حركة تحطيم الصور (Iconoclast) ومناهضة عبادتها . فعلى الرغم من أن هذه الحركة تؤلف فى بعض مظاهرها جانباً من إصلاحات الإمبراطور العلمانية ، فإن الدافع الجوهرى إليها هو الاعتقاد الدينى [1] ، ولذا فإن المعاصرين كانوا ينظرون إلى المسألة بأسرها بوصفها مسألة

(١) من المعلوم أن الدين والسياسة لا يمكن فصلهما فصلا تاما كما رأينا من قبل ، ولا شك أن سلامة الدولة من الزلازل والأوبئة والغزو كانت فى نظر مناهضى عبادة الصور تعتمد إلى حد عظيم على قيام ما يعتبرونه العقيدة الصحيحة ، خاصة وهم قوم لم يكونوا «عقليين Rational» فى تفكيرهم ـ بالدرجة الشديدة التى يصورهم بها بعض الناس أحياناً .

دينية بحتة . فقد ادعى خصوم التحطيم أن إنكار إمكان تمثيل مرئى ، هو إنكار لحقيقة التجسيد وبالتبعية إنكار لأس العقيدة المسيحية . ولا سبيل إلى تقدير المرارة الشديدة التى اتصف بها الكفاح إلا إذا وضع القارئ هذا الاختلاف الأساسى نصب عينه [1] . على أن معركة تحطيم الصور ومناهضة عبادتها ، ليست إلا نزاعا اجتمع فيه من الاختلافات والدوافع السياسية والفلسفية والجمالية ، بل العنصرية أيضاً ، مايرجع أصول كثير منها إلى الماضى البعيد . وما من صيغة عصرية تستطيع أن تعرض علينا من جديد ما تنطوى عليه هذه الحركة من مشاكل معقدة . فقد نشبت الحرب فى جميع المستويات ، وتحولت الآراء من النقيض إلى النقيض ، وتشعبت فى كل شكل من أشكال الحلول الوسط . ومن اليسير على المتصفح أن يستكشف ما ارتكبه الجانبان من سخافات وحماقات ، فهناك من ناحية أولئك الأباطرة الذين تمادوا فى تلك الحملة حتى لقد اعترفوا «بتطويب» يهوذا الأسخريوطى وتلقيبه قديساً وعمدوا إلى إزالة لفظة « القديس » من أسماء الأماكن . على أن الواقع من الناحية الأخرى ، أن إقامة عبادة سحرية للصور يرجع سخفها إلى أنها فى أحط صورها تعتبر ضرباً من الإيمان « بالفتيشة » لحالة مرضية . ومع ذلك فإن الفارق الفلسفى كان هاماً وحقيقياً ، وإن جاز لنا أن نشك من خلال مايحيط بالأمر كله من سحب سوء العرض وتأجج المشاعر ، — فى أن المتخاصمين كانوا يرون بوضوح الأشكال التى كانوا يوجهون إليها طعناتهم . فالصعوبات الكامنة فى علاقة الصور بما تمثله ، ليست إلا قصة قديمة ترجع إلى الأزمنة الوثنية ، ثم تواصل الجدل فى شأنها طوال عصور المسيحية جميعاً . من هنا يتبين أن كلا من الجانبين كان وراءه معين من السوابق لاينضب يستطيع أن ينهل منه ، بالإضافة

---

(١) انظر التذييل ب .

إلى الفقرات المنتزعة من نصوصها الأصلية فى الكتب المقدسة وكتابات الآباء الأولين ، والتى شكلت لتكون قذائف فى الحرب الكلامية الناشبة .

كان معظم أفراد حزب تحطيم الصور ينتسب إلى آسيا الصغرى موطن الأباطرة الإيسوريين ومنبت الشطر الأكبر من جندهم وكثير من موظفيهم. وفى هذه المنطقة ازدهرت عدة طوائف متشددة في التطهر والتعفف، ولم تتولد الكراهية لعبادة الأوثان عن هذه المذاهب التطهرية فحسب، بل أسهم فى ذلك أيضاً عقائد المسلمين المجاورين . ولكن الأباطرة أنفسهم لم يكونوا من الهراطقة . إذ كان فى وسعهم أن يعتمدوا هم وخصومهم على السواء على التقاليد الصحيحة للكنيسة . وينبغى لنا أيضاً ألا نشدد التأكيد على التناقض بين ما لدى آسيا من الرمزية التجريدية وبين الفن التشكيلى اليونانى الرومانى . فالمعروف أن البحر المتوسط تعرض طوال قرون عديدة لمؤثرات شرقية ، وأن الفن البيزنطى فقد بالفعل كثيراً من خصائصه التقليدية (الكلاسيكية) . وأثارت مساجد وقصور الخلفاء الآسيويين وقتئذ من الجاذبية القوية ، ما لابد أن يثيره كل فن خصيب رائع . على أن الراجح أن النزاع حول التحطيم ومناهضة عبادة الصور ، لم يكن له تأثير جوهرى على تطور الطراز البيزنطى ، الذى استقرت مبادئه الأساسية من قبل فى عهد جستنيان .

وقد بدأ ليو فى (٧٢٥) حملته لتحطيم الصور . إذ ارتقى الجند السلالم وأزالوا التمثال الكبير للمسيح المنصوب فوق باب القصر بالساحة الرئيسية بالقسطنطينية . فاحتشد جمهور غاضب وعقبت ذلك الفتن وقتل الدهماء أحد الجند . وأحدثت المراسيم الإمبراطورية فى هذا الصدد طائفة من الاضطرابات نشبت فى العاصمة وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ، بل لقد نودى بأحد الأفراد إمبراطورا ، ولكن المؤامرة أحبطت ، وكانت الغلبة فى النهاية لسياسة ليو ، الذى كانت تؤازره على الجملة الطبقات المتعلمة . وازداد الكفاح مرارة

فى عهد قسطنطين الخامس ، ولم يلبث ما قام به الرهبان من النشاط السياسى ، الذى سبق أن تنبأ ليو بخطورته على الدولة ، أن تطور إلى المطالبة بأن يكون للكنيسة استقلالها . على أن قسطنطين الخامس الذى كان يضارع أباه فى العبقرية الفكرية ويفوقه فى البراعة السياسية والتدبير ، التقى بخصومه على أرضهم ، وآزر حركة التحطيم بكل ما توافر له من موارد . وفى (٧٨٧) انتهزت إيرينى فرصة اندلاع فتنة شعبية فأعادت عبادة الصور ، على أن حركة التحطيم ومناهضة عبادة الصور لم تلبث أن عادت فى (٨١٥) نتيجة لرد فعل آخر . ومع ذلك فإن قوتها ما لبثت أن تضعضعت رويدا رويدا ؛ إذ فقد الجيش ما كان له من سلطان فى البلاط ، وفاز رهبان دير ستوديوم بالغلبة . وفى (٨٤٣) تمكنت الإمبراطورة ثيودورا وهى وصية على ولدها ميخائيل ، من الجمع بين تنفيذ رغباتها وبين مقتضيات السياسة بإعادتها للأهلين عبادة الصور التى لم يكفوا عن التعلق بها .

والظاهر أن هناك شيئاً من المبالغة فى تقدير الأثر الذى ولدته فى الغرب حركة مناهضة عبادة الصور . أجل إنها قد تأججت بسببها المشاعر ، وذلك نظراً لأن الصور والآثار المقدسة كانت تلعب دوراً جوهرياً فى عقائد الناس ، ولكن أحداً لم يستطع إدراك النقاط الفلسفية التى كان الموضوع يدور حولها . على أن الواقع أن أقوى أسباب الثورة التى شبت فى إيطاليا كانت كراهية الناس للموظفين البيزنطيين والضرائب البيزنطية ، وتأجج الوطنية ودوافع السياسة المحلية ، ولم يحمل الفرنجة على التدخل إلا ضعف بيزنطة العسكرى . ومن ثم فإن النزاع حول عبادة الصور لم يكن إلا حدثا واحدا فى شقة الخلاف والتنافر بين روما البابوية والقسطنطينية الإمبراطورية . وآية ذلك أن العودة إلى عبادة الصور لم تصلح ما فسد ، وذلك لأن الخلافات السياسية لم تكن تدور حقاً حول المسائل العقائدية . على أن فترات الانشقاق بين الكنيستين

الشرقية والغربية التى أخذت تزداد طولا وتتكاثر عدداً بلغت ذروتها فى الصدع النهائى الذى حدث فى (١٠٥٤) ، ومع ذلك فقد كان فى الإمكان حتى بعد هذا التاريخ الوصول إلى اتفاق حول المسائل الاعتقادية . ومن هنا يتضح أن السبب فى عدم الوفاق بين الطرفين لم يكن فقرة : « والابن أيضاً Filioque » ، بل مدعيات البابا فى السيادة وخطط الإمبراطورين الشرقى والغربى . وثم فاصل آخر كان يزداد فى الحين نفسه على الأيام علوا وقوة ، هو فاصل اللغة والعرف والتقاليد . وعمد ليو الإيسورى إلى توجيه ضربة مضادة لتحدى البابا ، فضم صقلية وجنوب إيطاليا وداالماتيا إلى البطريركية البيزنطية ، ولم يلبث أن شاع بهذه الجهات عناصر عديدة للعقيدة الشرقية نتيجة تقاطر الرهبان اليونانيين اللاجئين . على أن فتح المسلمين لصقلية فى القرن التالى أضعف قبضة البيزنطيين على الغرب ، على حين أن الشعوب الصقلية الوثنيين بالبلقان ، أقامت عقبة أخرى حالت دون الاتصال المباشر بين الجانبين . ولكن بيزنطة تمكنت من ضم بلغاريا إلى حظيرة المسيحية فى القرن التاسع ، بعد أن ترددت طويلا بينها وبين الولاء لروما[1] ، وأخيرا ظلت على مذهبها الأرثوذكسى ، والواقع أن أطرافها الغربية (وكانت تضم آنذاك الشىء الكثير من صربيا العصرية) كانت تحدد دائرة نفوذ بيزنطة الدينى والثقافى . وبذلك أضيف سبب جديد للانقسام إلى ما يقوم بالبلقان من أسباب الشقاق التى لا يحصيها عد ، والتى لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا .

---

(١) انظر استيفن رانسيمان فى كتاب (A History of the First Bulgarian Empire) ص ص ٩٩ ع ع (لندن ١٩٣٠)

الفصل الثانى عشر

الفرنجة

عندما توفى كلوڤيس فى (٥١١) انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، « كأنما كانت مزرعة خاصة » . وهذه العادة فى اقتسام الإرث عند الفرنجة تعتبر من الحقائق الأساسية فى تاريخ الميروڤنچيين ، إذ يرجع إليها قدر كبير من التفكك والفوضى التى سادت هذه الحقبة من التاريخ . فكلما مات ملك تواصلت التجزئة ، التى كثيرا ما كانت تستند إلى اعتبارات شخصية بحتة . مثال ذلك أن شرق فرنسا ضم عقب وفاة كلوڤيس إلى الأوڤرن ، دون مراعاة للأجناس أو القوميات . ولكن المملكة لم تزل على الرغم من هذا التقسيم تعد وحدة ، كما يدل على ذلك اسمها الذى اشتهرت به وقتذاك ، وهو مملكة الفرنجة (Regnum Francorum) ، واعترف أبناء كلوڤيس الأربعة ، بأن من واجبهم المشترك ، أن يتموا مابدأه أبوهم من الفتح . وفضلا عن ذلك ، فإن العواصم الأربعة : ريمز وأورليان وباريس وسواسون ، كانت تقع فى أطراف الإمارات ، وكلها على قرب وثيق بعضها ببعض ، وبذلك ألفت بمجموعها مركزا للنفوذ الجرمانى .

ولا تنطوى قصة تلك الأسرة فى أثناء نصف القرن التالى إلا على سلسلة طويلة من جرائم القتل واستلحاق الأرض والثورات والتقسيمات الجديدة فى الإرث . ولكن الوحدة عادت مؤقتاً فى (٥٥٨) ، يوم لم يبق من جميع سلالة كلوڤيس سوى كلوتار . فعلى الرغم من الحروب الأهلية تواصل الربط بين أجزاء فتوح كلوڤيس واستمر توسيع رقعتها . فأخضعت برجنديا نهائياً

فى (٥٣٤)[1] وأصبحت تؤلف جزءاً من ممتلكات الفرنجة ، وإن عاد عليها القرن الذى قضته مستقلة بنوع من وحدة الثقافة ، لم تذهب عنها آثاره بعد ذلك أبدا . أما بروفانس التى كانت تابعة فى يوم من الأيام ليثودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، فقد تخلى عنها خلفاؤه فى قريب من ذلك الوقت . على حين أن سبتيمانيا ، وهى المنطقة الواقعة بين الرون والبرانس ، كانت لاتزال بأيدى القوط الغربيين ، ولم تعترف بريتانى للفرنجة إلا بسيادة اسمية . ويمكن القول إجمالا بأن فتح غالة قد اكتمل حتى حدودها الطبيعية . ولم تظفر الجيوش الفرنجية بهذا المبلغ من النجاح خارج هذا النطاق . إذ إن حملاتهم على شمال إيطاليا وأسبانيا لم يترتب عليها نتائج ثابتة كهذه ، على الرغم من أن ضعف القوط الغربيين والقوط الشرقيين قضى على كل احتمال أمامهم للثأر لأنفسهم . وكان ثيوديبرت أشد أبناء كلوڤيس إقداما ، وقد دبر ذات يوم خطة رام بها أن ينحاز إلى الچيپيد واللومبارد للقيام بهجوم مشترك على تراقيا، بل تشير الرواية إلى أنه فكر فى شن هجوم على بيزنطة ذاتها . على أنه ينبغى لنا ألا نغلو فى تقدير هذه الأمور أكثر مما يجب . فما كان ثيوديبرت رجلا يضارع شرلمان أو أوتو ، وليس ثمة دليل على أن وراء هذه الخطط الطنانة بصيرة سياسية نافذة .

ولكن الواقع أن التقدم الحق فى أثناء تلك المدة كان فى اتجاه الشرق . إذ اكتملت فتوح الفرنجة على يد كلوڤيس فى صورتها الصحيحة . فقدمت باڤاريا فروض الطاعة والولاء ، وأخضعت ثورنچيا . ولكن قبائل السكسون بالسهول العظمى فى وسط ألمانيا أظهرت فى القتال عنادا أشد ، وردت الغزاة

---

(١) انظر ص ١٣٧ بعنوان ثيودوريك والكنيسة .

على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة . على أن هذا يعد ابتداء للعملية التى كتب لشرلمان أن يصل بها إلى خاتمتها ، كما يعد تمهيدا لطريق المبشرين المسيحيين الذين قاموا فيما بعد بتنصير ألمانيا .

الميروفنجيون الأوائل

على أن نصف القرن التالى يتصف بصفة مناقضة تماما . إذ حلت الحرب الأهلية فى أثنائه محل الفتح . وعلى الرغم من تواصل الحملات على شمال إيطاليا ، فإنه لم يترتب عليها إضافة هذه الجهات إلى الفرنجة نهائياً . أجل بذلت بعض الجهود لانتزاع سبتيمانيا من القوط الغربيين ، وشهدت كل من كركاسون ونيم الاشتباك المسلح بين الطرفين : غير أن المنطقة ظلت خاضعة لحكام أسبانيا، ثم انتقلت فيما بعد إلى أيدى المسلمين . ولم يبرح البريتون والباسك (الباشكنس) يحافظون على استقلالهم ، وفوق هذا فإن غارات الآفار على ثورنجيا التى حدثت فى ذلك الوقت حالت دون أى مزيد من التوسع على الحدود الشرقية.

لقد استنفدت موجة الفتح قوتها ، كما أن قوى الانحلال داخل مملكة الفرنجة كانت تعمل عملها بأقصى قوة . والصفحات التى كتبها جريجورى أسقف تور تروى لنا قصة ذلك الزمان . إذ إنها تسجل الوباء والمجاعة والقتل والموت الفجائى . وتذكر امتلاء الطرق بالشحاذين وقطاع الطرق ، بل إن الكنائس نفسها لم تكن بمنجوة من النهب . ولما استشرت العداوات الضارية بين أمراء الميروفنجيين ، التمسوا المساعدة من النبلاء فى ممالكهم ؛ وتتجلى نتيجة ذلك فى زيادة استقلال النبلاء ونمو الإقطاع واستشراء الخروج على القانون، وفى العداوة التى نشبت بين أوسترسيا ونوستريا وبين برجنديا وأكيتانيا، التى بدا أنها تتجه نحو تكوين إمارات مستقلة . وتوفى كلوتار آخر من بقى حيا من أبناء كلوفيس فى (٥٦١) تاركا وراءه أربعة أبناء . ولكن لم يعش

من هؤلاء الأربعة إلا كاريبرت ملك باريس حتى (٥٦٧) ونشب بين سيجبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون نزاع طويل مرير من أجل السيادة ، على حين أن الأخ الرابع وهو جنترام ملك أورليان وبرجنديا حاول أن يحفظ التوازن بينهما . ثم تفاقمت حدة العداوة بين سيجبرت وشلبريك عندما تزوجا أميرتين شقيقتين ، هما برانهيلدا وجالسوينثا ـ وهما من بلاط القوط الغربيين الذى اشتهر بالأبهة والتمدن . على أن جالسوينثا زوجة شلبريك لقيت مصرعها خنقاً فى ظروف مريبة ، وعندئذ عاد شلبريك إلى خليلته الأولى فريديجند. ولم يلبث سيجبرت أن خرّ صريعا غداة انتصاره على شلبريك ، بطعنات الخناجر المسممة التى سددها إليه عملاء فريديجند . ووقعت برانهيلدا فى الأسر ، غير أنها تمكنت من الهرب إلى مملكة ابنها ، حيث دبرت الانتقام من أعدائها على هذه الجريمة المزدوجة . ومنذ تلك اللحظة تسيطر على هذه الفترة شخصية برانهيلدا ملكة أوستراسيا والوصية على عرشها ـ وأوستراسيا هى مملكة الفرنجة الشرقية ـ كما تسيطر على تاريخ الحقبة أيضاً بما شنته من حرب على نوستريا ، وهى مملكة شلبريك فى الشمال والغرب (التى هى آخر الفتوح وأحدثها niust) . ويعتبر شلبريك طراز الطاغية الميروفنجى . إذ إن الشهرتين اللتين سيطرتا عليه هما زيادة ثروته وتوسيع رقعة مملكته . ولتحقيق هاتين الغايتين صار يبيع الأسقفيات ، ويجبى ضرائب باهظة ، وينزل الغرامات على رعاياه الأغنياء ، وذلك على حين أنه لم يكن يرى فى الخيانة ضعة ولا فى القسوة وحشية ، مادام يحقق بذلك خططه ومآربه ضد خصومه من الأمراء الميروفنجيين . وكان جريجورى أسقف تور يعده نيرون زمانه وهيرودس عصره . ولاشك أن هذه الصفات كانت شائعة بين معاصريه . ولكن شلبريك كانت له مواهب أصيلة . فإنه لاحتقاره اللسان الجرمانى ، كان يقرض التراتيل

والقصائد باللغة اللاتينية ؛ وصدر عنه مرسوم أضيفت بمقتضاه أربعة حروف إلى الأبجدية . وبأمره تقرر إنكار الأقانيم الثلاثة وبطلانها باعتبارها حماقات تشبيهية ، بل لقد بلغ الأمر بتحرره الفكرى أن تحدى قانون الساليين ، الذى يعتبر الحصن الحصين لتقاليد الفرنجة ، وذلك فيما حاوله من إجازة الإرث للنساء فى أحوال خاصة . ثم إن لبرانهيلدا عدوته اللدودة شخصية بالغة القوة هى الأخرى . فقد ظلت أكثر من ثلاثين عاما مسيطرة على مصائر أوستراسيا وصامدة فى وجه هجمات شلبريك ، كما أنها تمكنت بفضل مساعدة أتباعها المخلصين ، وعقد تحالف مع برجنديا فى الوقت المناسب ، من القضاء على النبلاء الخونة . فهلك أحدهم فى لهيب قلعة أضرمت فيها النيران ، بينما لقى آخر مصرعه بإلقاء الآجر عليه من خلال سقف كنيسة الأسقف بثردان . ونصب حفيداها على عرشى برجنديا وأوستراسيا ، ولكن برانهيلدا ظلت مع ذلك قابضة على زمام السلطان . وعندما شق أمير أوستراسيا عصا الطاعة على طغيانها ، ألبت عليه أخاه ، ولم تزل به حتى هزم وأعدم . ولكن خاتمة حياتها الطويلة كانت اقتربت . فقد مات حاكم برجنديا فى (٦١٣) ، ولم تنجح برانهيلدا فى محاولتها ضم عرشى أوستراسيا وبرجنديا تحت حكم ابن حفيدها . فإن نبلاء أوستراسيا بزعامة أرنولف أسقف متز وپيپين ناظر القصر وهما مؤسسا البيت الكارولنجى ، استصرخا ملك نوستريا لمساعدتهما ، وأخذت برانهيلدا أسيرة على شاطىء بحيرة نيوشاتل . وعذبت مدة ثلاثة أيام ثم ربط جسدها فى النهاية فى ذيل حصان جموح ، أطلق له العنان ، وضرب بالسوط حتى جمح وأفلت زمامه .

برانهيلدا وشلپريك

وقد عرفت برانهيلدا كيف تحكم الهيمنة على مابمملكتها من قوى . وعلى الرغم من التزامها خطة الحزم الشديد فى معاملة الكنيسة ، لم يفتها فى الوقت ذاته بذل المنح والهبات العديدة للأسقفيات والأديرة . وتشهد المراسلات التى دارت بينها وبين البابا جريجورى الأكبر بمدى إدراكه لسلطانها على الكنيسة والدولة ، وتقديره لأهمية نفوذها فى فرنسا . ويبدو أن النبلاء كانت لهم اليد العليا فى عهد كلوتار الثانى الذى تولى عند ذاك عرش المملكة بأجمعها. وكان تعاونهم فى أوستراسيا بوجه خاص حاسماً فى تحقيق النصر ، ويتجلى الثمن الذى انتزعوه واضحاً فى مرسوم (٦١٤) . فإن الكنيسة حرصت فيه على إبراز استقلالها ، وطالبت بحرية الانتخابات الأسقفية وزيادة سلطات المحاكم الكنسية ، على حين انتصرت الأرستقراطية صاحبة الأراضى الزراعية على موظفى البلاط ، حيث أصبح محتما منذ تلك اللحظة أن يكون انتخاب الكونتات [1] قاصراً على أبناء النواحى الذين سيتولون الحكم فيها ، وبذلك تزايد النفوذ المحلى والوراثى . ومنحت أوستراسيا وبرجنديا نصيباً موفوراً من الاستقلال الذاتى ؛ وبذا صار لكل من المملكتين طابعها الخاص المميز ونظامها الإدارى المنفصل ، وأصبح يرأسها نظار القصر ، الذين صاروا يمثلون مصالح النبلاء المحليين بقدر مايمثلون مصالح الملك . على أن المملكتين تجزأتا فى حد ذاتهما إلى إقطاعات كبيرة ، بل لقد مضى التفكك إلى أبعد من ذلك .

ومع ذلك حدث فى تلك اللحظة أن توقفت العملية برهة وجيزة ، ومن ثم يشهد حكم داجوبرت (٦٢٩ ـ ٦٣٩) آخر الأقوياء بين الملوك الميروفنجيين

(١) انظر الفصل نفسه بعنوان حكم الرومان والجرمان .

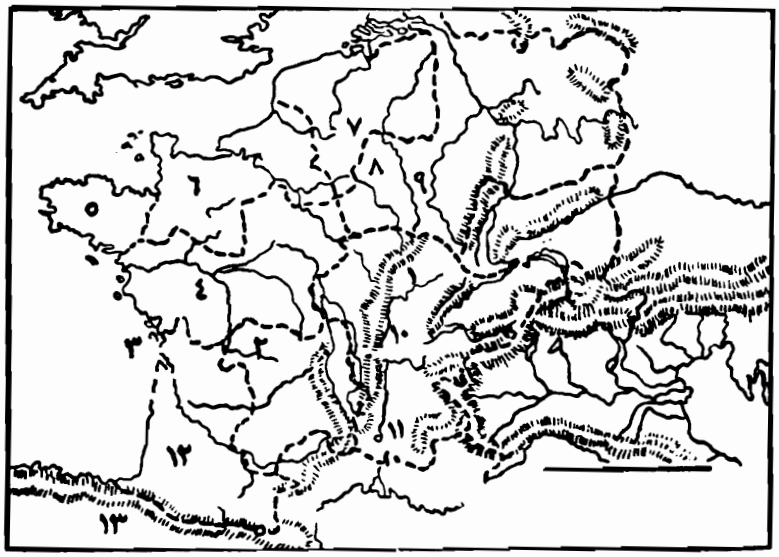

(ا) من ٥١١ — ٥٦١ م

١ ـ برجنديا ٢ ـ أكيتانيا ٣ ـ بوردو ٤ ـ پواتييه
٥ ـ بريتانى ٦ ـ نوستريا ٧ ـ أوستراسيا ٨ ـ ريمز ٩ ـ متز
١٠ ـ فيينا ١١ ـ بروفانس ١٢ ـ جسكونيا ١٣ ـ القوط الغربيون

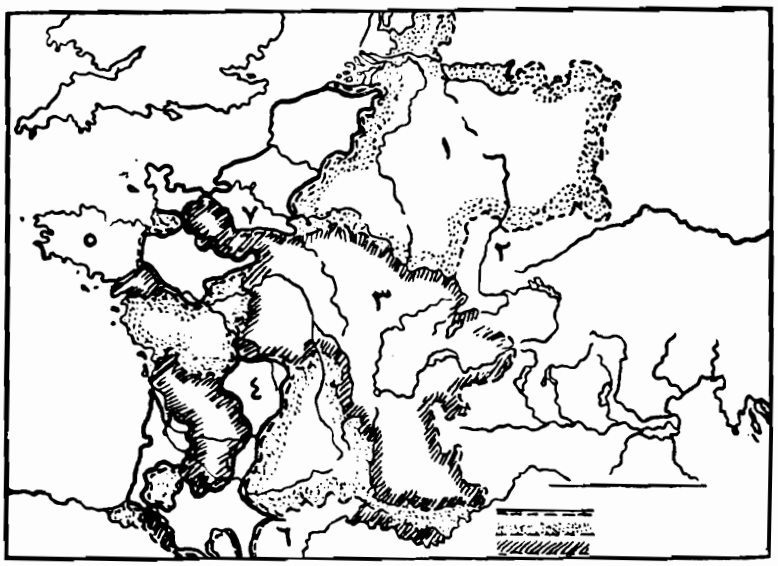

(ب) ٥٦٨ م

١ ـ أوستراسيا ٢ ـ مانيا ٣ ـ برجنديا
٤ ـ اكيتانيا ٥ ـ بريتانى ٦ ـ سبتيمانيا ٧ ـ پاريس

(١٤) خريطتا فرنسا فى عهد الميروفنجيين

الملوك الميروفنجيين ، انبثاقا نهائياً لمظاهر القوة والجبروت من جانب السلطة المركزية . فإنه ظل عشر سنوات يحكم فرنسا بأجمعها ، بعد أن تمكن فعلا من إبعاد أخيه بتعيينه حاكما على إقليم منطقة الحدود ببلاد الباسك . وازدهرت الفنون ببلاطه المتألق الحافل بالفضائح . فإنه أولى صناعة الذهب اهتماماً خاصاً . وتأسست فى عهده الأديرة ، وقام المبشرون بنشاط عظيم . وأرغم البريطونيون والبشكنس (الباسك) على أداء يمين الولاء ، وأصبح نفوذ الفرنجة ملموساً فى شئون إيطاليا وأسپانيا . بل لقد حدث أن داجوبرت عقد محالفة مع هرقل ، تقضى بالقيام بإجراء مشترك لمناهضة الصقالبة والبلغار بوسط أوربا ، الذين كانوا يهددون حدود كل من فرنسا وبيزنطة على الراين والدانوب .

وقعة تيرترى

وعندوفاة داجوبرت انقسمت المملكة شطرين ، وعادت عملية اللامركزية والتفكك سيرتها الأولى ومن المعروف أنه حدث فى أثناء حياة داجوبرت أن طلبت أوستراسيا أن يكون لها حاكم مستقل ، وهو ابن الملك . وعندئذ ازداد ظهور نزعات الانفصال فى الأجزاء الثلاثة التى تتألف منها فرنسا . والواقع أن تاريخ القرن التالى لايدور إلا حول قصة أطماع نظار القصور ومنافساتهم . وصار الأمراء الميروفنجيون يولدون ويموتون ، وليسوا سوى أشباح قصيرة العمر ، قد أهلكها انغماسها فى الفجور (Rois fainéants) فى سن مبكرة ، دون أن يظهر بينهم فى أحسن أحوالهم إلا الورع الضعيف أو الظريف المستسلم . أما القوة الحقيقية فأصبحت فى أيدى كبار موظفى الدولة ، الذين كانت المنازعات التى تنشب بينهم من أجل السيادة الشخصية ، هى التى تقرر مصائر المملكة . على

أن مركز نظار القصور [١] كان متناقضاً من بعض الوجوه . فإنهم كانوا فى نفس الحين كما سبق أن أشرنا نواب الملك الممثلين له وزعماء لطبقة النبلاء المحليين . وعندما تعارضت هذه المصالح المتضاربة ، انحاز بعض محافظى القصر إلى جانب الملك ، بينما انضم بعضهم الآخر إلى جانب النبلاء . على أن جريموالد ناظر القصر فى أوستراسيا أنس فى نفسه من الجرأة والإقدام ما حمله على إعلان مناهضته للجانبين جميعاً . ولم يلبث حتى نفى الأمير الميروفنجى إلى إرلندة فى (٦٥٦) ، وأجلس ابنه على العرش . غير أن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه المغامرة ، فتغلب عليه النبلاء ، وأسلموه إلى ملك نوستريا فأعدمه . ولم يجد سلالته من الكارولنچيين فى أنفسهم من القوة ما يكفى لممارسة السلطة الملكية باسمهم إلا بعد مضى مائة سنة . على أن الحروب الأهلية لم تتوقف قط فى تلك الأثناء ، حيث كان كل ناظر قصر يحرص على رفع شأن إقليمه ، إما بقصد إرضاء الملك الذى يقوم على خدمته ، وإما بالحدّ مما طمع عليه رفاقه النبلاء من رغبة جشعة فى انتهاب الأراضى .

على أن مملكة نوستريا صارت لها اليد العليا فى (٦٥٧) بفضل ما اشتهر به محافظ القصر إبروين ، ولكن أوستراسيا طالبت بأن يكون لها محافظ قصرها وملكها الخاص ، أما برجنديا التى تولى قيادتها أسقف أوتون ، الذى رفع فيما بعد إلى مرتبة القديسين باسم القديس ليجير ، فإنها طالبت بالاستقلال . ووقع ليجير فى الأسر وأعدم بعد أن حل به من التعذيب والتنكيل ، ما جعله يظفر فى الأزمنة المتأخرة بتاج الشهداء ، واستعادت نوستريا سيادتها مرة أخرى . وقد ظل إبروين محتفظاً بسلطانه حتى وفاته (٦٨١) ، ولكن نجماً جديداً سطع فى الأفق فى ذلك الحين . فإن پيپين الثانى زعيم النبلاء الأوستراسيين قد لقى

(١) ناظر القصر أو حاجب القصر (Mayor of the Palace)

الهزيمة على يد إبروين ، ولكنه عاد بعد ذلك ببضع سنوات فانتهز فرصة الشقاق الذى دب بين أهل نوستريا ، فزحف على المملكة المنافسة له ، وتمكن فى معركة تيرترى بالقرب من پيرونّ من التغلب على كل مقاومة ، ونصب نفسه حاكما فعلياً على فرنسا (٦٨٧) . ولم تكن معركة تيرترى نصراً لجرمان الشرق على جرمان الغرب ؛ وذلك لأن پيپين ظفر بتأييد فريق كبير من النوستريين . على أن تلك المعركة كانت فى ظاهرها نصراً للنبلاء على السلطة الملكية التى كان يؤيدها جريموالد وخليفته ؛ ولكنها لم تكن فى الواقع إلا انتصارا شخصياً لپيپين . ومنذ تلك اللحظة أصبح پيپين سيدا على فرنسا ، وصار هو الذى يهب منصب محافظ القصر لمن يشاء من أفراد أسرته ، ويحكم البلاد حكم ملك حقيقى لا يعوزه إلا اللقب . وبذلك يكون ما فعله فى الواقع نهاية حكم الميروفنچيين ، وبداية عهد الأسرة الكارولنچية .

وتمكن فى المدة بين (٦٨٧ ، ٧١٤) من فرض سلطانه على البلاد ، واستطاعت قبضته القوية أن ترفعها مكاناً علياً فى سياسة غرب أوربا . على أنه عند وفاته ، صارت مصائر أسرته ووحدة فرنسا فى كفة القدر . ذلك أن ولديه الشرعيين توفيا فى أثناء حياته ، ولمّا يبلغ أحفاده سن الرشد بعد فانفصلت برجنديا ونوستريا إحداهما عن الأخرى ، وانتشرت الفوضى والاضطراب بكل أرجاء البلاد . ففى الشمال الشرقى عاث الفريزيون فسادا فى المنطقة المحيطة بمدينة كولن ؛ وحذا حذوهم السكسون فى أقصى الجنوب ، على حين اغتنمت أكيتانيا الفرصة للمرة الثانية فأعلنت استقلالها . بيد أن البيت الكارولنچى عثر عند ذاك على بطله الذى وهبه ذلك الاسم . إذ إن شارل مارتل الابن الثالث لپيپين تغلب على جميع العقبات التى صادفته الواحدة بعد الأخرى . وقد استخدم قوة أوستراسيا كما فعل أبوه من قبل وقضى على جميع العصاة النوستريين وألزم أهالى أكيتانيا الطاعة واستعاد الأطراف الشرقية بمجموعة

من الحملات المظفرة ، كما استطاع فى (٧٣٢) تشتيت شمل الجيوش العربية فى معركة بواتييه [١] ، متبعاً نصره بعد ذلك بحملته التى شنها على بروڤانس . ومع ذلك فقد أظهرت الأيام أن استقلال أكيتانيا قد خدش ولكن لم يقض عليه ؛ وظل العرب محتفظين بمدينة ناربونة ، التى اتخذوا منها ملاذا حصينا يخرجون منه لمباغتة مدن وادى الرون .

على أن پيپين بن شارل هو الذى أتم نهائياً إخضاع أكيتانيا . إذ إن فتحه لها اتسم بالاستقرار والنجاح والثبات . كان يفوق أباه فى البراعة السياسية والتدبير ، وشاهد ذلك أنه حرص على استرضاء الكنيسة بمنحها الهبات التى تقوم على دراسة وتمعن ، وعنى بتأسيس حزب موال له بين أهالى أكيتانيا أنفسهم . وقد تجلى منه الحرص فى سياسته منذ وقت مبكر ، وكانت آية ذلك حادثا صدر عنه . ففى (٧٥١) اتخذ پيپين لقب ملك فرنسا بعد أن حصل على موافقة البابا على مشروعه ، وبعد أن أمر بحلق رأس آخر الميروڤنچيين وإدخاله حياة الرهبنة . وبعد ذلك بثلاث سنوات توج پيپين رسمياً بكنيسة سان دينيس ، وقام بمراسم التتويج البابا استيفن الثانى ، الذى كانت الظروف قد اضطرته إلى اجتياز جبال الألب يلتمس مساعدة الفرنجة على اللومبارد . وكان التتويج من الشعائر الجديدة على الفرنجة ؛ فإنه كان بمثابة الخاتم الذى مهر به انتخاب پيپين لعرش المملكة ، ذلك الانتخاب الذى أقرته من قبل جمعية الشعب (المجلس الوطنى) وقد قدر لنظرية « الحق الإلهى » فى الحكم الذى تنفرد به أسرة معينة ، أن تزداد أهمية فيما عقب ذلك من تاريخ فرنسا ؛ ومع ذلك فإنه حتى فى هذه الفترة كان قيام الكنيسة بمسح الملك بالزيت المقدس ، مسحا يقترن بالسوابق المستمدة من الكتب المقدسة ، أمراً لابد

---

(١) انظر الفصل التاسع بعنوان فتح شمال إفريقية .

منه ، لموازنة ما جرى من انتهاك حرمة الميروفنچيين الذين يعتبرون من سلالة إله البحر الأسطورى ، والذين احتفظوا ، حتى فى إبان اضمحلالهم ، بما كان للوثنية فى الأزمنة السحيقة من قداسة خفية .

البابوية والكارولنجيون

ولم يكن من الأحداث العارضة تحالف البابا وأسرة الكارولنچيين ، الذى قدر له أن يغير مجرى التاريخ الأوربى بأجمعه . وعلى الرغم من أن الشكل الذى اتخذه ذلك التحالف إنما يرجع إلى سياسة بعض الشخصيات البارزة ؛ فإن المؤثرات المتلاقية المتجمعة التى جعلت تلك السياسة شيئاً مرغوباً ، كانت ثمرة تطورات بطيئة . ويذكر القارئ أن كلوفيس أنشأ كنيسة يصح اعتبارها قومية أو تكاد . وقد واصلت الكنيسة الاحتفاظ باستقلالها فى ظل أحفاده ، حتى أن البابا جريجورى الكبير نفسه لم يستطع رغم تعيين نائب له فى آرل ، تنفيذ مدعياته فى السلطان ، بل اضطر إلى أن يكتفى بأن يمارس عن طريق أمثال برانهيلدا نفوذا غير مباشر . وانعكس على الكنيسة الارتباك والبلبلة اللذان يتولدان عن الحروب الأهلية : فإن انقسام المملكة لم يهيىء الفرصة لعقد المجامع الكنسية العامة ، كما أن الأساقفة تورطوا فى النزاع السياسى . واختلطت السلطات الزمنية بالكنيسة ، ولم يكن صوت البابوية مسموعاً بين فرقعة الأسلحة . فلما أن أعيد النظام إلى نصابه فى عهد الكارولنچيين ، صار من الضرورى إتمام الوحدة السياسية لفرنسا ، بزيادة العناية بتنظيم إدارة الكنيسة . إذ إن شارل لم يسهم إلا فى زيادة الاضطراب ، وذلك لأنه كافأ أتباعه بما بذله لهم من الأسقفيات والأديرة : ولكن پيپين وأخاه كارلومان اللذين انسحبا فيما بعد إلى الدير ، أقرا مشروعات الإصلاح التى عرضها عليهما بونيفاس ، وصدرت على أثر ذلك طائفة من القرارات ،

التى تنظم السلطة الكهنوتية وإدارة الكنيسة وآدابها . وكان بونيفاس مبشراً إنجليزياً ، قام بخدمات جليلة فى ألمانيا ، حيث أدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الوثنيين . وسنعود إلى الإشارة إلى أعماله الجليلة فيما بعد ، بيد أن أهمية عمله فى هذا المقام ، إنما ترجع إلى علاقته الوثيقة بالبابوية . وكان بونيفاس من رجال البابا المخلصين . وقد طلب من كل أسقف يتبعه أن يقسم يمين الولاء لكنيسة روما وللقديس بطرس وقسيسه الأكبر وهو البابا . وعلى الرغم من أن پيپين وكارلومان احتفظا بما لهما من حقوق السيادة على الكنيسة ، فإنهما كثيرا ما كانا يستشيران البابا ، ومن ثم أخذت العلاقات بين السلطتين الكبيرتين فى الغرب تتوثق رويدا رويدا . وحدث بالفعل أن شارل مارتل تلقى استغاثة من البابوية تستصرخه لنجدتها ، وقد اشتد بها الضيق فى أثناء كفاحها مع اللومبارد . غير أنه لم يستجب لذلك النداء ، وذلك لأن مركزه لم يتوافر له من الاستقرار ما يسمح له بخوض حملات خارجية محفوفة بالمخاطر ؛ يضاف إلى ذلك أن اللومبارد كانوا الحلفاء الطبيعيين للفرنجة وأنهم انحازوا إلى شارل فى أثناء قتاله مع المسلمين . ولم يجد شارل كذلك بدا من النظر بعين الاعتبار إلى مركز أباطرة بيزنطة الذين كانوا بوصفهم أباطرة روما لا يبرحون يطالبون بالسيادة على إيطاليا . غير أن الأحداث كانت تتحرك بسرعة نحو خاتمة فاصلة . ففى (٧٥١) قذف ملك اللومبارد بقواته على راڤنا . ففر الأرخون (النائب الامبراطورى) البيزنطى وفقدت بيزنطة إلى الأبد أملاكها فى شمال إيطاليا . وفى السنة ذاتها وبتشجيع من البابا ، اتخذ پيپين لنفسه التاج بعد أن نحى عن العرش آخر ملوك الميروڤنجيين . وعندئذ أصبح تهديد اللومبارد للبابوية خطرا محدقا ؛ وكان الموقف يتطلب منها الخضوع التام ، كما أن سقوط روما بدا شيئا لا مندوحة منه . ولم يبرح پيپين مترددا ، حتى عبر البابا بنفسه جبال الألب فى مهمته الخطيرة ، التى أدت إلى

جلب قوات الفرنجة إلى إيطاليا ، وتوطيد اتحاد البابا والبيت الكارولنجى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

حكم الرومان والجرمان

بالغ المؤرخون فى قيمة بقاء فكرة الإمبراطورية فى أثناء القرون التى انقضت بين سقوط روما وتتويج شرلمان . حقاً أن جذور الإمبراطورية الغربية كانت تمتد طويلا فى الماضى السحيق ، وأنها تستمد بقاءها بطبيعة الحال من السوابق العتيقة ؛ يضاف إلى ذلك أن تأسيسها لم يحدث انقلابا ثورياً فى الموقف السياسى بالغرب ؛ وكل مافعله أنه كان تعبيرا رسمياً لما كان قائماً فعلا من الأمور . غير أن مااقترن بأصلها من ظروف عجيبة والفروق الضخمة التى كانت تباعد مسافة الخلف بينها وبين الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أنموذجها الأول المحتذى ، إنما ترجع إلى حد كبير إلى اندماج الحضارتين الجرمانية والرومانية ، الذى تميز به سكان ممتلكات الفرنجة . وكل مايمكننا إيراده هنا عن ذلك الأمر هو مجرد الإشارة العابرة . ذلك أن ماحدث إنما هى عملية معقدة دامت ثلاثة قرون ، واختلف أثرها بين منطقة وأخرى ، وبين مدة زمنية وأخرى ، كما أن معرفتنا بها ضئيلة ومستمدة من سجلات متقطعة متناثرة ، وهو وضع يحول دون الوصول إلى قواعد وتعميمات وثيقة .

فمن حيث المظهر ، يبدو أن التنظيم الإدارى والسياسى بفرنسا لم يختلف إلا قليلا عما كان عليه حاله فى غالة الرومانية . إذ إن مااتخذه ذلك التنظيم من الطرائق والمصطلحات مستمد من روما ، وكانت اللاتينية هى اللغة الرسمية . ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد ، أن عدد الكلمات ذات الأصل الجرمانى فى الفرنسية الحديثة لايتجاوز العشرة فى المائة من اللغة الفرنسية ذاتها . أما فيما يتعلق بالوضع القانونى ، فلم يفترق الفرنجة عن سائر السكان إلا فى قيمة

الدية (Wergild) ، على حين أن مناصب كبار رجال الدين ، فضلا عن المناصب المالية ، كان يشغل معظمها الرومان الفرنسيون . ولكن لو فرض أن أوضاع هذه النظم بقيت دون تعديل ، فلا شك أن روحها كانت تعرضت فعلا لتغيرات عميقة ، لا عن طريق المؤثرات الجرمانية المباشرة فحسب بل أيضاً نتيجة ما ترتب على الغزوات من أحوال جديدة . وقد استندت الإمبراطورية الرومانية إلى الفكرة التجريدية عن الدولة ، وإلى جعل القوانين والحكومة للجميع بدرجة متساوية ، وبصورة مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها . فالفرد ليس إلا مواطنا بالإمبراطورية لا رعية للإمبراطور . أما المملكة الفرنجية فكان اعتمادها فى بقائها على العلاقة الشخصية بين الرجل والرجل . وكانت سلطة الملك شخصية بحتة ، فهى من ثم تختلف باختلاف شخصية شاغل العرش . وكان رعاياه يرتبطون به بيمين الإخلاص — التى هى رابطة شخصية — وهى يمين تحتم عليهم اتباعه فى الحرب . وظهرت عند ذاك طائفة جديدة من النبلاء ، اعتمدت فى البداية على الملكية ، ثم أخذت بعد ذلك تظفر بالقوة عن طريق النفوذ الوراثى المحلى ، والإعفاءات التى كانت تغدق عليها . وكان العنصر الشخصى ظاهراً أيضاً فى المجال القانونى . فإن الرجل من هؤلاء كان يحاكم بمقتضى قوانين الجنس الذى ينتسب إليه ، سواء كان من الغاليين الرومان أو الساليين أو الريبواريين أو البرجنديين . وكانت طريقة الأخذ بالثأر ، وهى ذلك المبدأ الجرمانى القديم ، لاتزال قائمة لم يتم القضاء عليها ، ولذا حفلت صفحات تاريخ جريجورى أسقف تور بقصص الثأر والانتقام . ومن ثم فإن ما اشتهر به نظام الوظائف فى غالة الرومانية من بالغ التخصص فى الأعمال لم يعد له وجود ؛ وذلك لأن ظهور الأحوال الجديدة البدائية الساذجة أزال كل فائدة له . فأحاط بالملك «التشريفاتى الحاجب» و «الصنجيل» و «الكندسطبل» ، وقام بالمهام الخاصة

أفراد من رجال البلاط لم يجر اختيارهم وفقاً لنظام خاص . وأصبحت المناطق المختلفة تحت حكم الكونتات الذين يختارهم الملك من بين جميع الطبقات ، بينما نيطت حكومة الثغور بأدواق عسكريين ، كثيرا ما أصبحوا حكاما وطنيين ومستقلين فعلا ، شأن ماحدث من دوق باڤاريا وثورنجيا . وكانت بوابات العشور ومعديات الأنهار لاتزال تدفع مكوسها ، وإن حدث فى كثير من الأحيان أن أفرادا كانوا يغتصبون تلك المكوس لأنفسهم ، على أن نظام الضرائب المحكم الذى تميزت به الإدارة الرومانية قد أغفل وأصبح مهملا : إذ لم يعد له مكان فى خطة أمير ليس لديه خدمات عامة يحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، ولا يعد المال إلا شطرا من ثروة مدخرة تحول عند اللزوم إلى صحاف ذهبية أو حلى مرصعة بالجوهر . وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لايعدون الجيش من الأعباء العامة بالدولة ؛ إذ تحشد « الجموع » حشدا جديدا لكل حملة من الحملات . وكان رجال الجيش يعتبرون أتباع الملك ، ويؤدون الخدمة على حسابهم الخاص . أما القوات الدائمة الوحيدة فهى الحرس الملكى الخاص (Antrustions) ، فضلا عن بضع كتائب قليلة ترابط على التخوم .

على أن فئات نظام الدية[1] تقسم المجتمع ابتداء إلى غالب ومغلوب ، وتضع الغاليين الرومان دون أقل الفرنجة مرتبة . غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا إذ إن الميزات الشخصية قد أبرزت نفسها ، فبينما ظلت طبقة السناتوريين تمد الحكومة بالأساقفة والموظفين ، حاز أغنياء الفرنجة قسطا ضئيلا من الثقافة الرومانية . واختلطت الطبقتان إحداهما بالأخرى ، وحذا حذوهم الأرقاء والعتقاء وصغار الفلاحين من كل من الجنسين . وهنا أيضا يكون ولاء الفرد للفرد هو القوة الرابطة . فالأسقف أو رئيس الدير والموظف فى البلاط أو

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان فرنسا فى عهد كارولنجيس ص ١٢٠ .

الحاكم المحلى كلهم رجل الملك (Leud) ، وكلهم مرتبط به برباط خاص ، وكلهم موضوع تحت حمايته . وكان هذا المبدأ نفسه معروفا فى كل إقليم (pagus). فالكونتات ينتظمون تحت إمرة الأدواق ، ويلتمس حماية الكونت الرجال الذين يقلون عنه مكانة . فكأن السلسلة الإقطاعية قد تشكلت فعلا ، وإن لم يعترف بها القانون بعد ، وهنا أخذت كلمة « رجل (Leud) تختفى ليحل محلها مصطلح : «تابع Vassus » . يضاف إلى ذلك أن هذه التبعية الشخصية قد عززها وزاد فى قوتها نمو المزارع الضخمة . فكما حدث فى القرون المتأخرة من الحكم الرومانى ، كان المالك الصغير يسارع إلى وضع نفسه تحت حماية سيد قوى بأن يتنازل له عن حيازته الحرة مقابل الحصول على وعد بكفالة سلامته وأمنه . وكانت الأديرة والأسقفيات تضيف إلى أملاكها الحقل بعد الحقل ، وذلك لأنه متى انتقلت الأملاك إلى يد الكنيسة ، لم يعد ممكناً انتقالها من حوزتها ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى ملكية الكنيسة بفرنسا مايربو على ثلث الأراضى . ويتجلى ضعف السلطة المركزية أيضاً فيما ارتكبه صغار موظفيها وتابعيها من الأخطاء والأضرار ، على أن كبار الملاك حصلوا على الامتيازات والإعفاءات تجنباً لما يقوم به هؤلاء الموظفون من ابتزازات . وبذلك أبعد موظفو الملك عن تلك الأراضى منذ تلك اللحظة ، وانتقل إلى ملاك الأراضى كل مايتصل بالضرائب والشئون القضائية من حقوق ومزايا وأرباح . والواقع أن الملكية والسيادة أخذتا بالفعل تتوحدان وتتقمصان . ومن ثم جردت الملكية (العاهلية) الوهمية نفسها من كل ماتبقى لها من سلطات قليلة . ومن هنا أخذ ما كان لدى الرومان من حكومة مركزية وآفاق عريضة للدولة يقترب من نهايته ، ويتحول إلى خصائص العصور الوسطى ومالها من الحكم المحلى والنظرة الضيقة المحدودة .

الفن والأدب والخرافات

لقد ولت حياة المدينة القديمة . وأصبحت المعابد ومدرجات الألعاب (Amphitheatres) خرائب وأطلالا ، وصارت الحدائق تشغل المناطق الخالية داخل المدن المسورة . وتكدس سكان القرى حول مسكن مالك الأرض الكبير بما يحوى من كنيسة وطاحون ودكان حداد ومخابز وإسطبلات إلى غير ذلك من الوسائل التى تكفل الاكتفاء الذاتى . وفى بعض الأحوال كانت أكواخ الأتباع تقع فى أطراف الضيعة ، على أنها تقوم فى معظم الحالات فى شوارع متجاورة ، وهى أسلاف معظم قرى فرنسا الحديثة . ولا تزال بيوت الأغنياء تحوى السقائف والأعمدة ، ولا تزال بها الحمامات والينابيع . وقامت الكنائس فى كل مكان ، منها ما اتخذ طراز الباسيليكة القديمة ومنها ما هو على شكل الصليب ، يتوسطها برج بأعلاه منور ، ومنها ما بنى من الخشب على الطريقة التيوتونية . ويتألق داخلها بما رصع فيه من رخام ملون وما أسدل فيه من أستار الحرير الفاخرة الموشاة ، على أن الرخام قد انتزع أصلا من بعض العمائر القديمة ، كما أن الأستار الحريرية مصدرها بيزنطة . ويغلب الطابع المتبربر على فن النحت ، وقد اندثر نهائيا ما اشتهرت به النواويس الآرليسية من تقاليد النحت الأصيلة . فلم يبق على ازدهاره القديم سوى صياغة المعادن ، لأنها كانت تحظى بتشجيع خاص من البلاط الميروفنجى ، ومن هنا تأسس حى الصاغة فعلا فى ظل كنيسة نوتردام بباريس .

وأخذ التغير السريع يلم بلغة الحديث . ولم يعد الفرق كبيرا بين اللغة السوقية الدارجة ولغة الأدب ، وأخذت اللهجات المختلفة تسير فى عملية التشكل بفعل ضغط القوانين الصوتية . فاستخدمت لفظة (Flumina de sanguine) للدلالة على « أنهار الدم » واستخدمت عبارة (promissum habemus)

للتعبير عن قولهم « لقد وعدنا » . واستعيرت ألفاظ ألمانية كثيرة ، ولكن اللسان الجرمانى لا يفتأ يحتفظ بمكانته فى المناطق الشرقية . وباستثناء كتاب التاريخ الذى ألفه جريجورى أسقف تور ، فإن الأدب اقتصر أو كاد على تراجم القديسين ، وهى مؤلفات تكرر فى تشابه ممل سرد المعجزات التى أتاها بطلها المترجم له . وفيها تتعاقب العبارات الرتيبة والجمل السقيمة بعضها وراء بعض ، وليس بين الكتاب واحد متمكن من لغته . وليس فيهم من ألم بأية حال بالدراسات الكلاسيكية ، بل إن الاعتقاديات اللاهوتية نفسها قد أقفل رتاجها دون معظم رجال الدين من أهل غالة . وتشربت ديانة سواد الناس بالتقاليد الوثنية ، بل الحق أن الوثنية نفسها لم تخمد نارها ولم تحتف نهائياً . فإن ماذاع عند الكلتيين من عبادة إلـه البحيرة وإلـه الجدول ، كان لهما من يعبدهما سراً ، كما أن الإلـه أودن كان لايزال له مقره فى غابة الأردِنّ . على أن دعوة الكنيسة التى تعززها الرهبة من السلطة الدنيوية ، قدر لها أن تجرد الآلهة القديمة من سلطانها ، غير أن الصياد الأسود واجتماع الساحرات عند منتصف الليل ، وكل مايصدر عن صنوف العفاريت من الفيرى والأقزام والوحوش من ضجيج ، قد ظلت تلاحق خيال العصور الوسطى وتستثيره . ومنذ ذلك العصر أصبح الشيطان (وهو « العدو » كما أخذوا يسمونه ـ وهو لفظ يجمع بين الخوف والخفاء) بارزا مشهورا فى المعتقدات الشعبية ، وأخذ الدين يتشح برداء معتم قاتم . فإن أحداً من الناس لن يستطيع فى اعتقادهم درء انتقام الله أو مكر الشيطان إلا بإقامة الشعائر الدينية . ويظهر القديسون فى الحقول عياناً ، وتصبح المعجزات ونذر السوء من خبرات الحياة اليومية . وترهق الأحلام والفأل عقول الرجال ، وتكتسب الأضرحة والمقدسات الدينية قدرات سحرية على النفع والمضرة .

فهل يوجد فى مثل هذا العالم شيء طبيعى ومعقول أكثر من أن الإمبراطور قسطنطين ، وقد شفته المعجزة من البرص ، قد اعتنق المسيحية ، جالباً معه الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ؛ وأنه بادر من فوره بالإنعام على البابا سلفستر بتولى الحكم الإمبراطورى فى الغـــرب منسحباً هو نفسه بغاية التواضع إلى بيزنطة ؟ أو هل هناك شيء طبيعى أكبر من أن تتناقل الألسن أن القديس بطرس بشخصه قد دعا القوات الفرنجية للدفاع عن مدينته المقدسة ؟ وكيف يمكن فى حمأة مثل تلك الأشكال والنظم أن تحمل ألفاظ مثل الشريف (البطريق Patricius) والإمبراطور والجمهورية بمالهن من تاريخ قديم ومعقد أى معنى أو أهمية دستورية مضبوطة إلى عقل رجال السياسة فى ذلك الزمان ؟

الفصل الثالث عشر

البابوية

١ — نفوذ البابوية فى إنجلترة وألمانيا وفرنسا

لقد شهد القرنان اللذان أعقبا وفاة جريجورى الكبير ، تطور النفوذ البابوى بأوربا الغربية ، ذلك النفوذ الذى مضى متمهلا مضطربا وخفياً غير مدرك حتى عند أصحابه أنفسهم . وقد كان لما اتصف به جريجورى من خلق ومكانة شخصية ، أثره فى رفع مكانة كرسى القديس بطرس إلى مستوى لم يستطع خلفاؤه المحافظة عليه ، ولم تكد شخصيته القوية تتوارى عن الأنظار ، حتى تجلى عدم استقرار مدعياته . أجل إن بعض المشاكل التى أثارتها ممالك البرابرة قد حلت ، ولكن مصاعب جديدة بالغة الضخامة صارت ملموسة . وقد أخذ الاضمحلال يدب إلى المذهب الأريوسى . وتحول اللومبارد إلى العقيدة الكاثوليكية ، واقتفت أسپانيا آثارهم عندما اتخذ ريكارد (٥٨٦–٦٠١) الكاثوليكية عقيدة قومية . على أن الخطر كان وقتذاك بالغ الاختلاف وشديد الخطورة . فلم يكن فى وسع الأمراء الجرمان ، وقد انصرف كل منهم إلى إنشاء حكومة مركزية قوية ، أن يتخلوا عن أى من عناصر سيادتهم . فلو حدث أن أنشأ هؤلاء الحكام مجموعة من الكنائس القومية لاتدين للبابوية إلا بولاء لفظى مجرد من الإخلاص ، لكان ذلك ضربة مسددة إلى قلب روما ذاته . والواقع أن الجوكان ينذر بنشوء ذلك الوضع السيىء . ذلك أن كلوڤيس وخلفاءه لم يكونوا يطيقون مطلقاً أى تدخل فى سيطرتهم على الكنيسة ، ولذا ظل منصب القاصد الرسولى (نائب البابا) بمدينة آرل مركزاً شرفياً ، لا يقوم بعمل النائب

عن حبار روما. ولم يتوقف اللومبارد عن العدوان حتى بعد اعتناقهم المسيحية. وربما جاز فعلا أن تخاف البابوية وهى واقعة بين سيوف اللومبارد (Inter Gladios Lombardorum) قيام مملكة جرمانية فى إيطاليا . على أن نشاط جريجورى أوتى فى أسپانيا حظاً أوفر من النجاح . إذ توثقت بفضله العلاقات بين روما وبين الأساقفة الأسپان ، ولذا تميز القرن الأخير لحكم القوط الغربيين بنمو نفوذ الأساقفة ، الذى بلغ من سيطرته على الشئون العلمانية أن طغى على سلطان الملكيات نفسها . وعلى الرغم من أن أحكام البابوية وقواعدها أرهقت الروح الاستقلالية للكنيسة الأسپانية ، فإن هجوم الجيوش الإسلامية عرض سلطان الكاثوليكية لضربة أشد خطورة .

على أنه لم يكن بد من أن يعدل التوازن عن طريق جهة أخرى . ذلك أن بقايا المسيحية البريطانية كانت تراجعت إلى المناطق الغربية أمام زحف السكسون . وقد حملت العقيدة قبل ذلك إلى إرلندة ، حيث نشأ مركز جديد للمدنية ، يجتذب إليه القديسين والعلماء من أرجاء العالم . وفى هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم القديم والتى لم تمسها أسنة المغيرين الجرمان ، بقيت تقاليد الحضارة القديمة حية فى الأديرة الكبيرة ، وإن أصابها الهزال ومسها التبربر . ولا شك أن الجو الخاص الذى يريم على هذا العالم الأجنبى الغريب ، إنما يتجلى فيما صدر عنهم من قصائد لاتينية نلمس فيها طريقة الكلتيين فى مراعاة الإيقاع والوزن فى حروف العلة بالكلمات المتتالية فى مخطوطاته الفائقة التى تفرد بينها كتاب المشبكات (Book of Kells) بما حوى من الحليات والحروف الكبيرة[1] . بيد أن الكنيسة الإرلندية لم ترض بالبقاء فى عزلة . إذ إن كولومبا نشر الإنجيل فى اسكتلندة والجزائر الغربية ، كما أن أيونا أصبحت

(١) انظر ص (١٥٦ — ١٥٧) والحروف الكبيرة هى المستخدمة فى بدء الجمل والأعلام فى اللغات الأجنبية . [المترجم]

مركزاً شهيراً للمسيحية . وعبر كولومبان البحر إلى فرنسا ، حيث أقام أديرته التنسكية بمنطقة الفوج . وتولى جال فى سويسرا وكيليان فى باڤاريا نشر المثل العليا الإرلندية (الهيبرنية) .

روما والكنيسة الكلتية

وانطوى هذا النشاط التبشيرى على بعض الأخطار التى تهدد سلطان روما . وفيما خلا ما نشب من فروق صغيرة ، كان لها طابع جدلى بحت مثل الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح وطريقة قص شعر الرهبان ، فإن الكنيسة الكلتية احتفظت بكل من إرلندة وغرب بريطانيا بتقاليد بدائية كثيرة ، وأبدت نفورا من الاعتراف بقيمة نظام الهيئة الكنسية وترتيباتها ، التى تطورت فى الأقاليم التى قطعت فى المدنية شوطاً أبعد ، والتى أنشئت على غرار النظام الإدارى فى الإمبراطورية الرومانية . كان هناك الأبروشية والأسقفية والأسقف والمطران والمجالس والقوانين الكنسية ، وفوق هذا كله السلطة المركزية بروما — ولكن هذا النظام المنطقى لم يثر حماسة بين مجتمعات الأديرة القبلية بإرلندة . ومع أن بعض الحالمين المتحمسين من « جزيرة القديسين » (إرلندة) هذه ربما تجرأوا على توبيخ الملوك ، بل ربما كانوا عرضة فى بعض الأحيان لحنق برانهيلدا الرهيبة ، إلا أن أرباب السياسة والتدبير من البابوات مثل جريجورى أدركوا أن توطيد سلطان الكنيسة على المجتمع العلمانى لن يتحقق إلا باستخدام أساليب بالغة العلمانية ، وبإنشاء قوة مدربة منظمة . ولذا فكر هؤلاء الساسة فى أن يتخذوا من هيئات الرهبان عونا عظيم القدر فى تحقيق هذا المبدأ ؛ ويجعلوا منها قوة يركن إليها فى دعم سلطان البابوية والقضاء على كل أسقف متمرد ، ولم يكن الأساقفة فى العادة سوى نبلاء أقوياء انتزعوا مناصبهم كرهاً من ملك ضعيف أذعن لإرادتهم . ولكن الفئة التى تمت الاستفادة منها على

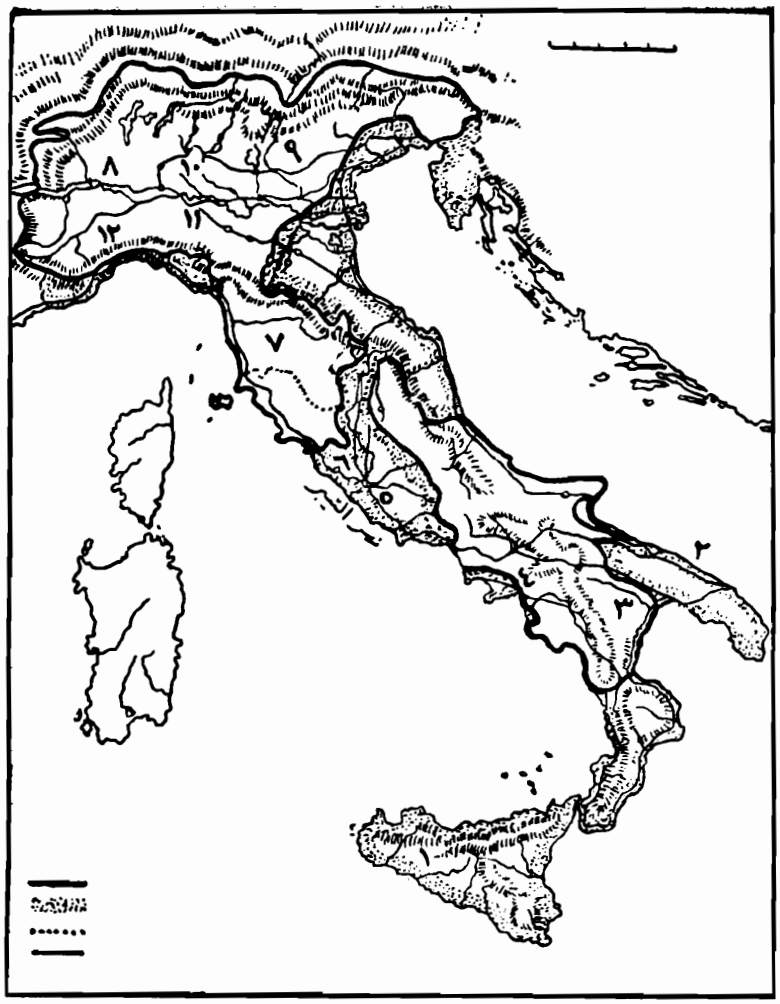

(١٥) خريطة إيطاليا من القرن السابع إلى الثامن

١ ـ صقلية	٢ ـ كالابريا	٣ ـ بنيفنتو
٤ ـ كامبانيا	٥ ـ روما	٦ ـ نهر التيبر
٧ ـ توسكانيا	٨ ـ نوستريا	٩ ـ أوستريا
١٠ ـ ميلان	١١ ـ بارفا	١٢ ـ ليجوريا
١٣ ـ نابولى		

هذا الوجه ، لم تكن فئة الرهبان الإرلنديين ذوى النزعة الفردية ، ممن يتحدون الملك والأسقف بل البابا نفسه ، وإنما هم طائفة الرهبان البندكتيين الذين عمدوا إلى إفناء شخصياتهم فى الإذعان لقادتهم الروحانيين .

وكان إيفاد البابا جريجورى للقديس أوغسطين فى مهمته التبشيرية ببلاد الإنجليز نقطة التحول فى هذه العملية ، وإن بدت مهمة ضئيلة الشأن فى ذلك الزمان . وتم تنصير إنجلترة رويدا رويدا واستغرق الشطر الأكبر من القرن السابع ، بيد أنه انطوى على سلسلة من الانتصارات والهزائم ، التى كان مردها تقلب الحظ بالممالك من ناحية ، والعداء الناشب بين الكنيستين الرومانية (الكاثوليكية) والكلتية من ناحية أخرى . وظلت كنيسة كانتربرى معقلا حصينا لنفوذ روما وكنيستها ، على أن مرسيا قد ظلت مملكة وثنية ، كما أن نورثمبريا ترددت بين الإخلاص لحليفتها الكنتية (Kentish) وولائها لما تبشر به « أيونا ولنديسفارن » على المذهب الكلتى . وكان مجمع هويتبى فى (٦٦٤) وهو المجمع الذى أكد ظفر كنيسة روما ، أول علامة سجلت ما يمكن تسميته باسم تنظيم الكنيسة الإنجليزية اللاتينية . وفيه قسمت البلاد إلى أبروشيات ، وأصبح القس المركز الفعال لكل أبروشية . وأخذت الكنائس الحجرية تحل محل الكنائس التى كانت تبنى فى الماضى من الخشب ، ثم ظهر نظام الأبروشيات بعد فترة من الزمن . وأصبحت المجامع تعقد بانتظام ، وأخضع الرهبان والقسس على السواء لحكم رؤسائهم . ومنذ تلك اللحظة تحولت إنجلترة رويدا رويدا إلى إقليم موال لسيادة روما الروحية . وازدهر التعليم فى المدارس الكبرى ، واستجلبت موسيقى الكنيسة وزخارفها من وراء البحار رغبة فى زيادة فخامة وبهاء هكسهام وويرماوث . ونفذت الحماسة الدينية إلى قلوب الطبقة الحاكمة . فدخل الدير سيدات من الأسرة المالكة ،

وأخذ الملوك يظهرون اهتماماً شديداً بالمخلفات المقدسة أو يتشحون بأردية الحجاج ، وينطلقون ابتغاء قضاء أيامهم الأخيرة فى روما .

وافتتح ولفريد اليوركى سلسلة الحملات التبشيرية الأنجلوسكسونية بألمانيا والأراضى المنخفضة ، وهى سلسلة بلغت ذروتها بفضل اسم بونيفاس العظيم . ولن نفى النتائج السياسية التى ترتبت على عمل بونيفاس حقها من التقدير مهما بالغنا فى الإشادة بها . وكان مسرح معظم ما بذله من جهود إقليما يقع خارج حدود الإمبراطورية الرومانية ، وكان من المستحيل أن يعتنق سكانه غير المتحضرين المسيحية لولا مساندة شارل مارتل ، الذى كانت فتوحه بدورها تدين بالشىء الكثير لمعاونة بونيفاس وأتباعه . وفى (٧٣٢) أنعم البابا على بونيفاس بلقب كبير الأساقفة ، ونظمت كنيسة ألمانيا تحت زعامته بوصفه عضواً مخلصاً يدين بالولاء والطاعة لروما . وفى هذه الآونة تم إقناع الباڤاريين والألامان الذين سبق أن اعتنقوا المسيحية على أيدى رهبان من الإرلنديين ، بالاعتراف بالسيادة البابوية بفضل مساعدة الفرنجة وسلطانهم . على أن عمل بونيفاس لم ينته عند هذا الحد . فإنه أقبل بناء على دعوة من پيپين وأخيه على إصلاح كنيسة الفرنجة . فأزيل كثير من الأخطاء والعيوب ووضعت الأسس لعقد المجامع الكنسية بانتظام وإلزام الأساقفة بالاعتراف الصريح بسلطة البابا .

لقد أدخل بونيفاس المسيحية والحضارة إلى وسط ألمانيا ؛ فيسر بذلك تقدم شارل مارتل بتلك المنطقة ، كما مهد السبيل لما حدث فيما بعد من ضم شرلمان لتلك المنطقة إلى ملكه ، وبذا أسهم بونيفاس فى وضع أسس السيادة الكارولنجية . كما أنه أخضع لسلطان البابا الكنيستين الكبيرتين بفرنسا وألمانيا ، ووثق أواصر التحالف بين البابا وبين كبير الفرنجة ، ذلك التحالف الذى أصبح عاملا فاصلا يتحكم فى تاريخ أوربا الغربية . هذا وإن القوى السياسية

التى تمخض اندماجها عن قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعنى بذلك بسط النفوذ البابوى ورسوخ دولة الـكارولنجيين ، إنما تدين للمسيحية الأنجلوسكسونية بدين لا يقل عما أسداه فيما بعد ، إحياء العلوم والفنون الذى وضع بذرته وطوره فى بلاط شرلمان تقاليد بسكوب البندكتى وبيده الجليل (Bede) ، التى شجعها ونماها ألـكوين وأتباعه .

٢ - توازن القوى فى إيطاليا

اللومبارديون

كانت ظروف اللومبارد داخل الإمبراطورية مختلفة تماماً عن الظروف التى صحبت دخول معظم الأجناس الجرمانية الأخرى . ذلك أن هذه الأجناس كانت تعد جندا محالفة (Foederati) — أى أنهم كانوا من الناحية النظرية مدافعين عن الدولة الرومانية — كما كانوا بصورة ما يؤلفون الشطر المقاتل والقوة الضاربة من السكان . أما اللومبارد فإنهم احتلوا الديار الإيطالية بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين فعليين . ولم يكن يحق لملاك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملـكية أملاكهم مع « الضيوف »[1] البرابرة . إذ جرت العادة على الإجمال بنفيهم منها وحرمانهم من كل شخصية قانونية ـ وذلك فى مراحل الغزو الأولى على الأقل . ومن ثم لم يكن هناك أى احتمال لقيام تنظيم مزدوج كالذى حدث فى مملـكة ثيودوريك[2] ، كما أن اللومبارد المنتصرين نزعوا فيما يبدو إلى الاحتفاظ بوحدتهم العنصرية وتقاليدهم سليمة مبرأة من كل شائبة ، والحيلولة دون تسرب الفـكرات والنظم الرومانية إليها .

على أنه قدر لطبعهم بالطابع الرومانى أن يتم فعلا ، ولـكن بوسائل أخرى ،

---

(١) انظر ص ١١٦ بعنوان الممالك الجرمانية الرومانية .

(٢) انظر ص ١٢٤ بعنوان إيطاليا فى عهد ثيودوريك .

حتى إذا وافى عهد تدخل الفرنجة ، كان اللومبارد وقد قضوا قرنين مستقرين بقطر متشبع بالمؤثرات الروحية والمادية لحضارة البحر المتوسط مدة تربو على الألف سنة ، ـ قد تعرضوا لتغيرات عظيمة فى طريقة عيشهم . فلم يعد اللومباردى يعد المدن المشيدة من الأحجار أماكن جديدة يجوز له نهبها . فإن تلك المدن أصبحت محلا لإقامة ملوك اللومبارديين أو نبلائهم ، ومراكز عسكرية وإدارية للمناطق التى تمد الطبقات الحاكمة بكل ماتحتاج إليه من وسائل العيش . فاتخذ عاهلهم مقر إقامته فى القصر (palatium) المشيد فى پاڤيا على الطراز الرومانى القوطى ؛ وقد بادر البرابرة إلى تقدير ألوان الترف فى عيشة الحضارة والرفاهية بسرعة أصبحوا معها لا يستغنون مطلقا عن خدمات حشد كبير من الصناع والتجار الرومان ـ أمثال المهندسين المعماريين والبنائين وتجار الجواهر وصناع الدروع والسلاح ، والموردين لكل ماتحتاجه حياة المدينة من مطالب . ويتجلى التغير فى أوضح صوره فى صفحات كتاب پول الشماس ، وهو لومباردى سطر تاريخ قومه فى أثناء النصف الثانى من القرن الثامن . ويستفاد مما كتبه أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند أول ظهورهم بإيطاليا ، قد أصبحت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور المناظر فى قصة اللومبارد التى أمرت الملكة ثيودلينداحوالى (٦٠٠) للميلاد بتصويرها على جدران قصرها الذى شيدته فى مونزا . وهو يلاحظ أن الصور تمثل بوضوح[1] المظهر العام للومبارد فى ذلك الزمن ، وأزياءهم فى الثياب وقص الشعر . فقد كانوا يحلقون مؤخر الرأس تماما ، ولكنهم يتركونه طويلا فى مقدم الرأس ، ويفرقونه فى الوسط فيتهدل على الخدين . ويستطرد الكاتب فيقول ، إنهم كانوا يلبسون ثيابا فضفاضة معظمها من الكتان مثل ثياب الأنجلو سكسون ولها خطوط عريضة مختلفة

(١) Paul. Diac. iv. 22

الألوان ، وقد انتعلوا أحذية طويلة الرقبة تكاد تكون مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين وتربط بشريط مستعرض. ثم شرعوا بعد ذلك يرتدون السراويل الضيقة ، ويجعلون عليها فى أثناء ركوبهم أغطية خشنة من الصوف ؛ غير أنه يضيف إلى ذلك أن هذه العادة قد نقلت عن الرومان .

ولم يقف أثر الرومان عند حد الأزياء الجديدة فى الثياب والأسلحة . فإنه على الرغم من أن قلة منهم كانت تستطيع التحدث باللاتينية عند دخولهم إلى شمال إيطاليا لأول مرة ، فإن تغير الأحوال واشتداد التعقيد فى الحياة اليومية كانت فى جانب اللسان الأكثر تمدنا ، ولم يلبث استخدام الألفاظ اللومباردية حتى أصبح يعد أمرا حوشيا مبتذلا فى نظر النبلاء . ثم أتم هذه العملية ماحدث من المصاهرة والاختلاط المستمر بين الفاتحين وبين سكان يفوقونهم عددا ، وكانت نتيجة ذلك أن الإيطالية ظلت إلى يومنا هذا أنقى لغات الرومانس . وينبغى لنا أيضاً ألا نغفل الأثر الثقافى للكنيسة بما كان لها من مراكز تعليمية مثل دير بوبيو القائم فى الأراضى اللومباردية ذاتها — هذا إلى أن العقود وغيرها من المستندات القانونية كانت تصاغ على الدوام فى صيغة رومانية ، ومع أن القانون اللومبارد ى كان جرمانيا ، فإنه لم ينج من تسرب الأفكار الرومانية إليه ، وتلقى استبداد الحاكم باعثا قويا كما حدث دائما فى حالة القبائل التيوتونية كلما اتصلت بالإمبراطورية وأساليبها ووسائلها ، وإن اختلف مركز الأدواق متقلبا بين منزلة الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين فعلا تبعاً لما يبديه الملك من صلابة الخلق والقوة الشخصية . مثال ذلك أن دوقيتى بنيفنتو واسپوليتو زادتا فى تحررهما بتقدم الزمن بالقرن الثامن ، غير أن دوقيات شمال إيطاليا أخذت على التدريج تزداد خضوعا للسلطة المركزية .

ومما له دلالته أن ملك اللومبارديين ظل يتخذ لنفسه لقب ملك الشعب

اللومباردى (Rex Gentis Lombardorum) . إذ إن قومه ظلوا مختلفين على الدوام فى وضعهم القانونى عن سكان إيطاليا الرومان ، ولا يغرب عن البال أن جميع وسائل الحضارة وأدواتها التى سبقت الإشارة إليها ، كانت إلى حد كبير فى أيدى التجار والفنانين والصناع الرومان . وفضلا عن ذلك فإن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهر بو وصناع الدروع والزرد فى لوكا وكريمونا ومنتجى الفاكهة والخضر اللازمة لقصور نبلاء اللومبارد ، كانوا فى الأغلب الأعم من الرومان، كذلك بقايا نقابة الصناع المعروفة باسم (Maestri Comacini)، وهى تلك النقابة الغامضة التى عفى عليها النسيان المكونة من الفنانين ، الذين يرجح أنهم بقوا بعد اندثار نظام التعليم[1] الجامعى فى العصر المتأخر من الدولة الرومانية ، والذين كثيرا مايتردد اسمهم فى المناقشات التى تدور حول أصول الفن الإيطالى ومصادره . والواقع أنه لايوجد أى شاهد حقيقى يصح أن يستند إليه فى ادعاء قيام طراز لومباردى خاص فى هذه الفترة ، سواء فى فن العمارة أو البواعث الزخرفية (Motifs) .

السياسة الإيطالية

إن تاريخ إيطاليا منذ (٦٠٠ إلى ٨٠٠) للميلاد يمكن تلخيصه فى أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لاتتفق أهدافها بعضها مع بعض . على أن دولتين من هذه القوى الخمسة هما مملكة اللومبارد والإمبراطورية البيزنطية فقدتا أثرهما الحاسم الفعال فى السياسة الإيطالية عند نهاية تلك الفترة . أما القوة الثالثة ، وهى دولة الفرنجة ، فلم يكن تدخلها إلا فجأة وعلى فترات ، ولكنها تلعب دورا قويا فى أثناء نصف القرن الأخير ، وهو دور بلغ ذروته بتألق نجم شرلمان . أما القوة الرابعة وهى البابوية فازدادت على الأيام نفوذا ، وهو

(١) انظر ص ٥٥ بعنوان اضطراب شئون الزراعة .

نفوذ حقيق لاشك فيه على الرغم من استتاره وراء ماتراءت فيه البابوية من سمة العجز . فأما القوة الخامسة ، وهى دوقيتا بنڤينتو واسپوليتو ـ فتمثل « الفرسين » على لوحة الشطرنج الإيطالية ، فعلى الرغم من ضآلة شأنهما فى حد ذاتهما ، فإنهما كانتا تقبضان على خطوط داخلية ، وغالبا ما كانتا العامل الفاصل فى مشاكل ضخمة بما تقومان به من حركات غير منتظرة وهجمات غير متوقعة[1] .

وكانت السياسة الثابتة لكل ملك لومباردى قوى هى إخضاع إيطاليا[2] برمتها لسلطانه . ومن الجلى أن تقصى الملوك لهذا الهدف الذى تمليه عليهم الحاجة إلى مكافأة أتباعهم بإقطاعهم الأراضى بقدر ماتمليه عليهم الحاجة إلى سلامة الملك الشخصية والمحافظة على هيبته وكرامته ـ كان يلقى بطبيعة الحال مقاومة من القوى الأربعة الأخرى . بيد أن نواب الإمبراطور البيزنطى فى راڤنا ، لم يترددوا فى استخدام القوات اللومباردية لمناهضة البابوات المتمردين بينما استعانت البابوية أكثر من مرة بالملك اللومباردى ، لقمع مايصدر من بنڤينتو واسپوليتو من حركات .

وكان الغرض الذى ترمى إليه بيزنطة الاحتفاظ بما فى قبضتها من المناطق البحرية بإيطاليا ، والإبقاء على موظفيها لوقف نمو قوة النبلاء من أصحاب الأراضى ، فضلا عن القضاء على قوة البابوية التى هى أكبر أرباب الأملاك جميعاً ، ثم يأتى أخيراً الحصول على الجزية المطلوبة للدفاع عن ممتلكاتها بالأقاليم الشرقية التى تتركز بها فى ذلك الأوان مصالحها الحقيقية ـ ولم يكن الإمبراطور يرى فى ازدياد نفوذ البابا إلا مصدر قلق وكدر له ، ومن ثم لم يكن ليرضى

---

(١) نسجل هنا أن هاتين الولايتين اللومباردیتين التابعتين لم تعملا متحدتين .

(٢) إن الذى يعبر عمليا عن تلك الفكرة هو الأسطورة التى تمثل أوتارى (٥٨٤) يركب منطلقا إلى غمار البحر فى الطرف الجنوبى الأقصى لإيطاليا ، ويلمس بحربه عمودا منفردا يبرز من بين الأمواج ، وهو يقول « ليكن هذا حد مملكة اللومبارد ! » .

بذلك النفوذ إلا بوصفه وسيلة لدعم وحدة الإمبراطورية سياسياً ودينياً .

أما الكرسى البابوى ، فلم يكن له من غرض فى تلك الأثناء ، إلا مجرد المحافظة على بقائه . وعلى الرغم من اختلاف صنوف السياسة التى اتبعتها البابوية فى سبيل ذلك ، فإن هدفها النهائى ظل ثابتاً لا يتغير . على أن الزمن ونمو الأمم الغربية كانا يعملان فى جانب البابوية . والراجح أن ذلك لم يكن واضحاً تماماً للمجلس البابوى ، ولكن الشىء الذى كان الجميع يشعرون به ، هو أنه مهما يكن الأمر ، فإنه لا ينبغى إذلال البابا والحط من قدره حتى يتساوى بأى أسقف لومباردى من جهة ، ولا بأى موظف بيزنطى من جهة أخرى ، ومن ثم اقتضت الحكمة الاعتراف بسيادة الإمبراطور حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن الباباوات المعروفين ببعد النظر والذين استطاعوا الشخوص بأبصارهم إلى سهول فرنسا وراء ممرات الألب لا يمكن أن تخفى عليهم العواقب النهائية التى تترتب على ما قاموا به من تدبيرات خفية ودقيقة حيال بيزنطة .

وكانت مرامى اسپوليتو وبنيڤنتو بسيطة ومباشرة : — وهى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما ، على حين أن سياسة الفرنجة قبل الفتح ، كانت تحددها بواعث ثلاثة رئيسية ، الضعف الداخلى وصداقة اللومبارديين التقليدية التى تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، إلى أن تمكنت الخيوط الدقيقة للدبلوماسية البابوية من اجتذاب القوات الغازية إلى أبواب روما .

على أن هذه العناصر المتحاربة تصالحت فترة من الزمن بفضل مادار بينها من وفاق ومن إقامة توازن مقلقل مضطرب للقوى ، وهى النتائج التى ترتبت على المشاكل الداخلية أو وجود أمراء ضعاف . وقد قصر خلفاء جريجورى الكبير عما أوتى هو من شخصية قوية وبراعة تدبير ؛ كما أن أباطرة الرومان الذين خلفوا هرقل انصرفوا إلى الاهتمام بما تعرضت له الدولة من خطر

الإسلام : واضطربت الأمور بمملكة اللومبارد بالمنازعات على وراثة العرش وتمرد الأتباع الإقطاعيين ، وذلك على حين أن فرنسا لم تبرح تمزق أحشاءها منازعات محافظى القصر (الحجاب) المتنافسين . على أن الفترة الحاسمة فى إيطاليا تقترن بظهور شخصيات قوية تتولى دفة الأمور : أمثال البابوات جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) وليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) وهو الإمبراطور الذى اشتهر بتحطيم الصور وليوتبراند (٧١٢ — ٧٤٤) أعظم ملوك اللومبارد . ولا شك أن التصادم المدوّى بين هذه الشخصيات التى تتمثل فيها السياسات المتطاحنة قد أضاء أرض إيطاليا الحافلة بالعواصف ، بوميض خاطف أظهر لنا ما دار هناك من تغيرات حقة .

وعند حوالى (٧٠٠) للميلاد تعرض مركز بيزنطة للدمار . فعلى الرغم من أن كبار الموظفين لم يزالوا فعلا خاضعين لسلطة الإمبراطور ، فإن السلطة الفعلية كانت بأيدى الأسرات التريبونية الإقطاعية ، التى لم تقتصر اختصاصاتها فى مناطقها على الناحية العسكرية فحسب ، بل تشمل كذلك الولاية القضائية وحق فرض الضرائب . ذلك أن تنظيما جديداً قد ظهر ، ولن تنشب فى إيطاليا ، كما كان يحدث فى الماضى ، ثورة يقوم بها أرخون (Exarch) (أى نائب إمبراطور) متمرد ، بل يقوم بها الموظفون المحليون ، الذين هم أشد خطراً من الأرخون ، وظهرت فى (٦٩٢) دلائل تنبىء بالأحوال الجديدة ، عندما دعا الإمبراطور چستنيان الثانى ، وفقاً للسياسة الإمبراطورية التقليدية ، إلى عقد مجمع ترولو (أو المجلس التكميلى للمجمع المسكونى الخامس والسادس Quinisextum) رغبة فى تقنين قواعد ومعايير للعقيدة وتوحيد الممارسات الدينية فى الشرق والغرب على السواء . بيد أن البابا رفض الموافقة على قرارت ذلك المجمع ، فأرسلت بيزنطة موظفاً كبيراً يلقب

بالبروتوسپاثاريوس (Protospatharius) إلى روما ، ومعه تعليمات بإلقاء القبض على البابا المتمرد . ولـكن ولت منذ زمن بعيد الأيام التى استطاع فيها چستنيان الأول[١] إنزال الإذلال والمهانة بالبابا فيچيليوس . فإن جند الحرس الوطنى الإيطالى (المليشيا) تقاطروا إلى روما ، ولم يفلت البروتوسپاثاريوس من عواقب غضبهم إلا بالتوارى عن أنظارهم تحت سرير البابا .

وتحددت الأزمة بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، يوم تجرأ الإمبراطور ليو على فرض ضرائب جديدة على الغرب بعد أن نجح فى الدفاع عن بيزنطة فى الحصار الشهير الذى ضرب عليها فى (٧١٧ — ٧١٨) ـ فاندلعت الثورة فى إيطاليا وزحف الأرخون على روما متحالفاً مع ليوتبراند ملك اللومبارد ـ وهو اتحاد طريف فى بابه ـ فاستصرخت روما لمساعدتها دوقيتى اسپوليتو وبنيڤنتو . وامتزج الـكفاح السياسى والاقتصادى بشىء من الشعور الدينى المتأجج عندما أعلن الإمبراطور ليو فى (٧٢٥) سياسة التحطيم أى مناهضة عبادة الصور المقدسة[٢] — فالعقيدة والاعتقاديات (Dogma) لم تـكن عند الإيطاليين إلا شيئاً عسيراً يعز على الأفهام ، ولـكن الصور كانت تشكل عنصراً حيوياً فى الإخلاص للعقيدة والتعلق بها ، ولذا لم يفت البابا أن يتخذ من النزاع على عبادة الصور سلاحاً قوياً يشهره فى وجه الإمبراطور ، ولم يلبث البابا أن صور ليو فى صورة المسيح الدجال نفسه . ويقول أحـد المعاصرين إن البابا جريجورى الثانى : «سلح نفسه كأنما يتأهب لمنازلة عدو» ، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من رعاياه ـ على أن الثورة الإيطالية أخمدت فى النهاية ، بعد أن لقى أحد نواب الإمبراطور مصرعه ، وبعد أن أنفذ أرخون آخر من بيزنطة لإعادة الأمن إلى نصابه .

---

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات التبشيرية والدبلوماسية البيزنطية .

(٢) انظر الفصل التاسع بعنوان النزاع حول تحطيم الصور .

تدخـــل الفرنجة

وهنا بدأت مرحلة أخرى جديدة فى انفصال الشرق عن الغرب . فقد قرر الإمبراطور سلخ أبروشيات صقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن أبروشيات الساحل الأدرياتى الشرقى من أسقف روما وضمها إلى بطريرك القسطنطينية . وحددت هذه الخطوة الخطيرة تاريخ جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى ، إذ زاد اصطباغ ذلك الإقليم فى أثناء القرون التالية بالثقافة والميول الهللينية (اليونانية) ، بل حتى بالسكان اليونانيين ، وكان ذلك نتيجة لتدفق اللاجئين الأرثوذكس بشدة على تلك المناطق فى أثناء منازعات حركة تحطيم الأيقونات . وفى الوقت ذاته ، أضعفت هذه الخطوة نفوذ البابا ، فيما يتعلق بممتلكاته داخل الإمبراطورية ، حتى أصبح لا يتجاوز أسقفاً إقليميا ، يتولى أمر لوائى[1] تخوم (Themes) هما راڤنا وروما (وقد تم عند ذاك فصلهما ووضع نظام مستقل لكل منهما على حدة) .

على أن ارتباط البابا بالإمبراطور ، كان شيئاً لابد منه للمحافظة على الوجود المستقل للبابا . وقد رفض شارل مارتل الدعوة التى وجهت إليه للاشتراك فى السياسة الإيطالية ، ولم يكن فى الإمكان ترك مملكة اللومبارد التى بلغت ذروة قوتها فى عهد ليوتبراند ، دون إيجاد قوة توازنها . ولذا فإن البابا تدخل للمرة الثانية لمصلحة سيده الإمبراطور ، وأنقذت راڤنا مركز الإدارة البيزنطية بشمال إيطاليا بعد أن أوشكت القوات اللومباردية على الاستيلاء عليها .

وشبت اضطرابات داخلية بعد وفاة ليوتبراند ، حتى إذا ذهبت راتشيز خلفه الورع ، وحل محله فى العرش آيستولف ، صارت هناك دولة مركزية قوية تواصل تحقيق غرضها التقليدى من إخضاع إيطاليا كلها . وجاءت فى أعقاب ذلك تطورات سريعة . ففى (٧٥١) وهى السنة التى اتخذ فيها پيپين

(١) ألوية التخوم هى المناطق العسكرية القائمة على الثغور أى الحدود . (المترجم)

لنفسه التاج تلبية لاقتراح البابا ، سقطت راڤنا أمام هجوم اللومبارد ، فقضى نهائياً على الحكم البيزنطى بتلك الولاية (الأرخونية) . وأخذ آيستولف يحشد فى السنة التالية كل موارده تمهيداً للهجوم على روما . وفى (٧٥٣) عبر البابا ستيفن جبال الألب ليلتمس المساعدة من ملك الفرنجة ، ولم تنقض سبعة أشهر حتى أعلن پيپين الحرب على المملكة اللومباردية ، وقام بغزو إيطاليا . وحلت الهزيمة والتشتت بجيش آيستولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار پاڤيا . وفرض پيپين الملك المظفر على أعدائه المقهورين رد راڤنا والممتلكات البابوية إلى حالتهما الأولى ، ولم يكد يعود إلى بلاده ، حتى استدعى على عجل وإلحاح فى (٧٥٦) ليواجه تجدد العدوان . وللمرة الثانية تعرضت پاڤيا للحصار ، واعترف العدو المقهور فى مقابل حصوله على السلام بپيپين سيداً أعلى للمملكة اللومباردية على حين تقرر تسليم « الأرخونية » إلى يد القديس بطرس وخلفائه الجالسين على كرسى روما البابوى .

وتوفى آيستولف فى تلك السنة عينها ، تاركا الموقف فى إيطاليا على حاله من الناحية الرسمية . وتقبل الجميع بالرضا سيادة پيپين على ممتلكات آيستولف على الرغم من أنه لم يفتحها حتى ذلك الحين فتحاً إقليمياً . وبذلك صار البابا صاحب السلطة العليا لا فى روما فحسب ، بل فى الأرخونية أيضاً ، ومع ذلك فإن الإقليمين كليهما لم يزالا يعتبران من الناحية الاسمية شطراً من الإمبراطورية على أن تدخل الفرنجة ظل مع ذلك سنداً غير مضمون ؛ وفى تلك الأثناء كان يبدو محتملا أن ينبعث الخطر اللومباردى من جديد .

وارتقى دسيدريوس العرش بعد آيستولف ، وتضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن پيپين من ابنة ملك اللومبارد . ولم تنقض بضع سنوات على وفاة پيپين فى (٧٦٨) حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والباڤاريين واللومبارديين ، تخضع لنفوذ الملكة الأرملة برترادا .

ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية فى (٧٧٢) وبعد ذلك بسنتين أغار شارل على إيطاليا بدعوة من البابا هادريان . واستسلمت پاڤيا بعد حصار طويل ، وحمل دسيدريوس وأسرته أسرى ، وزالت من الوجود مملكة اللومبارد المستقلة عند نهاية (٧٧٤) .

منحة قسطنطين

هذه — بأوجز عبارة — هى الحقائق المتعلقة بتدخل الفرنجة فى إيطاليا . وتتوارى خلف تلك الحقائق صورة معتمة غير واضحة المعالم تتألف من دبلوماسية ملتوية ومطامع شخصية وتفاعل حضارتين : الحضارة الرومانية بمالها من تاريخ طويل من الفكرات التشريعية والدستورية ، وبما استقر فى لغتها من أثر قرون مديدة من الحكم المستقر والخصائص الفلسفية المميزة والحضارة الجرمانية بما تنطوى عليه من الولاء الشخصى وبما لها من ذكريات قبلية وقصور فى فهم المصطلحات التجريدية . ومن المحال علينا فى عالم عجيب كهذا زاخر بالأساطير والخزعبلات وبالصيغ الإمبراطورية العتيقة نصف المفهومة ، أن نؤلف صورة متكاملة من الجذاذات البتراء التى نتلقفها من أفواه السذج من كتاب تراجم الباباوات ومن التواريخ التى كتبها الرهبان الأدميون ، لتكون بياناً مقنعاً عن العملية الطويلة الأمد ، التى فصم بها أساقفة روما علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية القديمة ووضعوا بها أنفسهم تحت حماية قوة الغرب الناهضة المسيطرة . ولاشك أن كل رمز يقع لنا يمكن إثارة ما لا حد له من المجادلات حول أهميته . فماذا كانت طبيعة ذلك « الديكيو Dicio » أى حق السيادة والسلطة التى ادعى البابوات أنهم يمارسونها بالنيابة عن الإمبراطور على الأراضى الإيطالية ؟ وماذا كان آخر مدى « ممتلكات القديس بطرس » وحدود إمارته التى تحولت البابوية بسبب امتلاكها لها حوالى ذلك الوقت

إلى سلطة زمنية ؟ أو ما المقصود بمنحتى پيبين وشرلمان وهباتهما المتتالية ؟

لقد كانت كل حركة تصدر ، ترتفع إلى منزلة الأهمية الدستورية ، كما أن ما دار من الجدال فى العصور الوسطى بعد ذلك حول علاقة الإمبراطورية بالبابوية ، كان الأصل فيه إرسال راية و بعض المفاتيح إلى ملك الفرنجة ، أو الإنعام بلقب « البطريقى Patrieian » أو الإمساك بعنان فرس . وكانت الصور والأساطير تتخذ قوة الوثائق . ويبدو أن القصة الشهيرة التى حدثت بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سلڤستر[1] ، التى ظلت طوال العصور الوسطى تؤلف مظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعيات البابا ، قد ظهرت بأوضح صورة فى تلك الفترة ، وربما جاز اعتبارها عملية تبرير أكثر منها تزييفاً مقصودا ، أو عدها ترجمة نقلت مصطلح الفكر الجارى أو مصطلح التقوى السائدة وعبرت عن علاقة البابا السياسية بالإمبراطور ببيزنطة . وتؤكد القصة أن قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر اللاتيران الخاص به للبابا ، ولم يعطه فحسب حق السيادة أى الديكيو على الغرب ؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان ، تمشياً مع وظيفته المقبلة ، على حين أن رجال الإكليروس التابعين له الذين صار لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة أن يحلوا محل مجلس السناتو بروما ، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب حكام الأقاليم ، — قد أصبح من حقهم استخدام زخارف الخيول البيضاء واتخاذ أحذية رجال السناتو التى يشتهونها . وبهذه الصورة العجيبة المحرفة للتاريخ تنعكس لدى القارئ بوضوح تام هيئة الأحوال والمنازعات المعاصرة ، ويشهد المنافسة الدائرة بين المجلس البابوى والموظفين البيزنطيين فى إيطاليا ، والتنازع حول صحة الهبات الفرنجية ومشكلة مدعيات اللومبارد فى امتلاك الأقاليم المغزوة .

(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الفنون والآداب والخرافات .

على أن أهم ماله دلالته هنا إنما هو بقاء فكرة الإمبراطورية حية بوصفها المادة الأساسية التى تشكل عليها رؤى عالم الأحلام ذاك من حيث قيام دولة دينية (ثيوقراطية) بروما . إذ إن إيطاليا ظلت أكثر من خمسة وعشرين عاماً تعد أباطرة حركة تحطيم الصور لاجباة ضرائب وظلمة فقط ، بل تعتبرهم كذلك دعاة انفصال غير أتقياء . وعلى الرغم من ذلك لا نعثر فى أى مكان على لسان يعبر ـ ولو همساً ـ عن إمكان قيام وجود مستقل للبابوية خارج ممتلكات الإمبراطور . وليس هناك ماهو أوضح من هذا دليلا على أن عقل القرن الثامن لم يزل يعتبر إمبراطورية روما العالمية التى يرأسها الإمبراطور فى القسطنطينية ، هى الصورة السائغة عقلا والأنموذج الوحيد المقبول عن النظام الأرضى فى هذه الدنيا . وروما هى المركز العريق للإمبراطورية . وهى من وجهة نظر الرومان المركز الأوحد الحقيقى للإمبراطورية . ولن يتيسر لإنسان أن يبرر نظريا تتويج إمبراطور غربى ، إلا بنقل ثورة التركيز من شخص الإمبراطور إلى مركز الإمبراطورية العتيق « روما » ذاتها ؛ ولا يخفى أن مبرر الوجود (Raison d'etre) لإمبراطور غربى من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح فى غرب أوربا ، وكان فوق كل شىء ، حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس وقسطنطين ، الكرسى المقدس والمسكونى للقديس بطرس وخلفائه .

البابا والكارولنجيون

وعلى الرغم من أنه بدت فى الأفق مقدمات مبهمة أنذرت بمثل هذه الإمكانات ، فإن الموقف المباشر ظل غامضاً . والواقع أن السنوات الثلاثين التالية شهدت هبوطاً مطرداً فى آمال البابوية التى اشتد ارتفاعها عند سقوط مملكة اللومبارديين . لقد انقلب ميزان القوى فى إيطاليا ، فإن پيپين عبر

جبال الألب بحملتين صليبيتين ليفوز بالخلاص جزاء له على استجابته للاستغاثة البطرسية (Petrine) . أما شارل فإنه استقر بالأراضى الإيطالية وصار سيداً أعلى ثابتاً وكبيراً علمانياً للبلاد . وكان لكفاح اسپوليتو وبنڤنتو ومحاولاتهما فى سبيل الاستقلال فضل عظيم فى رفع شأنهما كحليفين للبابا لهما قيمة عظيمة وإن لم تكن محققة . ولكن هاتين الولايتين أصبحتا آنذاك تابعتين إقطاعيتين لأمير الفرنجة ، ولم تعد معاندتهما تعود على البابا بأية مصلحة . ومنذ تلك اللحظة أصبح واضحاً أنه لو اختلف البابا والكارولنچيون ، فلن يجد البابا مدافعاً يستطيع أن يشخص إليه التماساً للعون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فكلما تم لشارل فتح جديد رائع ، ازدادت رقعة إمبراطوريته اتساعاً ، وتضاءلت أبعاد مملكة البابا وقلت أهميتها . ثم إن توحيد أوربا الغربية بزعامة سيد واحد ، أبرز العلاقات الدولية وجعل لها أهمية كبيرة ، وصار لزاماً أن تخضع مدعيات البابا فى استيريا وجنوب إيطاليا للعلاقات الديبلوماسية المتبادلة بين آخن وبيزنطة ، وقد جأر البابا بأمرّ أنواع الشكوى من تمرد كبير أساقفة راڤنا واعتداءات دوق اسپوليتو ، ولكن شكواه ذهبت أدراج الرياح يوم كان شارل يقوم بحملاته على التخوم السكسونية . والواقع أن البابا كان يتعين عليه بوصفه زعيما لعالم المسيحية فى الغرب القيام بدور أقرب إلى السلبية من دور نصير العقيدة المسلح ، ولكنه انطلق وقد نقشت على عملته عبارة الديانة المسيحية (Christiana Religio) ، وأضفيت القداسة على أسلحته وبفضل صلوات الكنيسة ودعواتها—انطلق ليبيد الوثنيين فى وسط ألمانيا ويقيم أسقفيات جديدة وراء حدود باڤاريا . وتردد صدى الإشاعات فى الخارج بأراضى الشمال نفسها ، حيث تولى إذاعتها أوفا ملك مرسيا ، بأن شارل عزم على خلع البابا وإحلال أحد رجال الكنيسة من الفرنجة محله . ذلك أن عالم العقيدة نفسه لم يسلم من عبث الأوتوقراطية المستبدة الجديدة فى

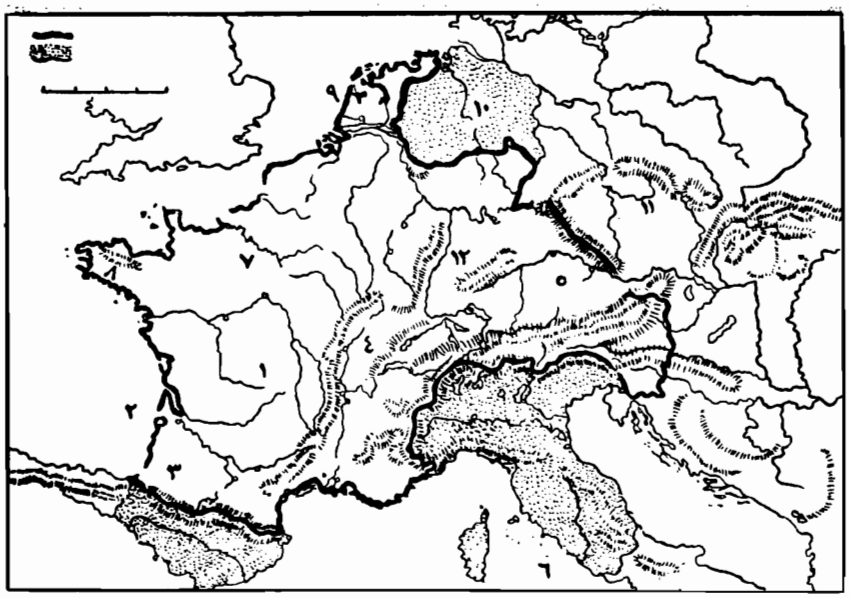

(١٦) خريطة إمبراطورية شرلمان

١ ـ أكيتانيا	٢ ـ بوردو	٣ ـ فاسكونيا
٤ ـ برجنديا	٥ ـ بافاريا	٦ ـ روما
٧ ـ نوستريا	٨ ـ بريتانى	٩ ـ فريزيا
١٠ ـ سكسونيا	١١ ـ الصقالبة	١٢ ـ الألامان

الغرب . إذ حدث فى مجمع (سينودس) فرانكفورت الذى دعاه شارل إلى الاجتماع ، رداً على مجمع نيقية الذى انعقد حديثاً فى الشرق ، أن ارتفع صوت لاهوت الفرنجة الفتىّ وأعلن بنبرات حادة مليئة بالثقة تنديده بكل من حركة تحطيم الصور ومذهب عبادتها بدرجة سواء ، ودمغه للإمبراطور والإمبراطورة بسبّة الهرطقة ، بل حتى اتهام اليونانيين بالافتقار إلى الروح العقلية الناقدة فيما يتعلق بأسطورة سلفستر . على أن البابا الذى وافق على قرارات مجمع نيقية ، لم يستطع أن يقوم بأى احتجاج ذى أثر . بل الحق أنه كان مستعداً لإعلان كفر الإمبراطور الأرثوذكسى إذ أراد شارل ، وذلك فيما لو أصر الإمبراطور على الاستمساك بالأبروشيات اليونانية وإمارات جنوب إيطاليا التى كان البابا يدعى ملكيتها . بيد أن إخضاع الشئون المذهبية للمصالح الدنيوية لدويلة البابا ، ليس أقل أهمية من خضوع البابا واستكانته إزاء أهداف شارل التى انقلبت مؤقتاً على بيزنطة . إذ لم يحدث قط منذ أيام جستنيان أن انحدرت البابوية إلى مثل هذا الدرك الخفيض . ومن العجيب أن سلطة الحبر الأعظم فى روما ذاتها لم تسلم من التحديات . فإن الانتخابات البابوية كان يصحبها على الدوام القتال الذى يدور فى الشوارع عنيفاً عارماً ، ويوجه من داخل القصور المحصنة ، وهو أمر يعتبر ظاهرة مألوفة فى المدن الإيطالية فى أثناء القرون الوسطى ، وكثيراً ما كانت المنافسات بين البلاء الإقطاعيين وموظفى الكنيسة تجد فرصتها التى تتشفى بها فيما ينشب من المنازعات الدموية بين البابا الشرعى والبابا الخصم .

الفصل الرابع عشر

شرلمان

حدث فى يوم عيد الميلاد من عام (٨٠٠) أنه بينما شرلمان ينهض فى أثناء إقامة القداس ، من ركوعه على ركبته أمام قبر القديس بطرس بروما ، أن وضع البابا على رأسه تاجاً وحياه أهل روما بصيحات مدوية قائلين : « إلى شارل أوغسطس الذى توجه الله ، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام ، نتمنى النصر والعمر الطويل » . لقد أشعل هذا المنظر خيال المؤرخين ناراً متأججة . فهناك فى الباسيليكة العتيقة التى تتـــلألأ بأنوار الشموع والحلل الـكهنوتية المرصعة بالجوهر ، وقف محارب أوربا الأول ، قاهر العرب والآ قار والسكسون ، الذى تمتد مملـكته من البلطيق إلى شاطىء الأدرياتى ، وتترامى من شمال أسپانيا إلى الدانوب الأوسط ، يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية ، بقبوله ذلك التقليد الجليل المأثور عن روما الإمبراطورية ، كما أنه « باتحاد الرومان والتيوتون واندماج ذكريات الجنوب وحضارته مع طاقة الشمال الفتية . . . يبدأ التاريخ الحديث »[1] .

ولا شك فى أن تلك الساعة كانت من أروع اللحظات فى تاريخ البابوية، لا يضارعها من حيث تأثيرها الدرامى سوى ذلك المنظر الآخر الذى حدث ذات شتاء فى يوم عاصف تساقط فيه الجليد بفناء قصر كانوسا[2] ، حيث

(١) انظر ج . برايس فى (The Holy Roman Empire)ص ٤٩ (ط ٨ — لندن ١٨٩٢) .

(٢) يشير الـكاتب إلى ماحدث للإمبراطور هنرى الرابع بقلعة كانوسا بالقرب من ريجيو اميليا بإيطاليا ، حيث وقف يطلب الغفران من البابا جريجورى السابع فى ١٠٨٧ على معارضته فى مسألة التعيينات . (المترجم)

وقف إمبراطور ذليل ينتظر ثلاثة أيام ليحصل على غفران البابا . ولكن أهمية ذلك النصر كشأن أهمية انتصار هلد براند كانت عميقة متغلغلة . فلم يكن الاحتفال الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس حلا دستوريا للمشكلات التى تكمن بطبيعتها فى علاقات شارل بالبابوية . إذ إنه لم يغير من الموقف الفعلى شيئاً ، ولم يسو أية مشكلة من مشكلات المستقبل[1] . ومع ذلك فإنه على حد قول برايس : — بداية عصر جديد ، من حيث إنه حدد خطوط ما نشب بين البابوية والإمبراطورية من نزاع لانهاية له ، وهو النزاع الذى تتألف منه خلفية السياسة الأوربية فى العصور الوسطى .

ومنذ أيام ثيودوسيوس ، يوم أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، لم يتم التوصل إلى صلح دائم يوفق بين مدعيات الكنيسة والدولة . ولم يكن فى الإمكان الوصول إلى حالة الاستقرار إلا بخضوع إحداهما للأخرى خضوعاً تاماً . ومما زاد الأمر تفاقماً فى ذلك الحين صعوبة تحديد مصالح الطرفين يوم أصبح نفوذ الكنيسة الزمنى (الدنيوى) أشد تنظيما منه فى أى يوم سابق . وتتمثل مدعيات البابوية بأوضح صورها فى خرافة منحة قسطنطين . أما وضع شرلمان فيمكن أن تعبر عنه كلمات ألكوين حيث قال : « أيها الملك ... إنى لأدعو الله أن يخضع لعدلك حاكم الكنيسة ، وأن تحكمك اليد اليمنى للقوى القاهر » . وإن جستنيان نفسه يصح أن يقر هذه العبارة ، وذلك مع التجاوز عما تتجه إليه من الازدواج بين الكنيسة والدولة . ومن ثم فلن يستطيع حل هذه المشكلة وإيقاف النزاع بين الإمبراطوريتين الروحية والزمنية إلا حلا وسطاً يوفق بينهما مؤقتاً أو سيادة أحد الطرفين على الآخر سيادة جارفة

---

(١) عن الآراء الحديثة المتعلقة بتتويج شرلمان ، انظر كتاب هلدمان فى (Das Kaieer-tum Karls des Grossen) (وبرلين ١٩٢٨) .

قاهرة . وطالما كان شرلمان على قيد الحياة ، لم يكن أحد ليجرؤ على وضع سيادته موضع نزاع أو جدال ، ولم يستطع أحد من الكتاب أمثال چوناس أسقف أورليان وهنكمار رئيس أساقفة ريمس ، أن يجرؤ على تأييد النظريات التى تجعل لسلطة البابا السيادة على سلطة الإمبراطور (auctoritas sacra pontificum) ، إلا حينما أخذ الانحلال يدب فى إمبراطوريته فى ظل الحكم الضعيف لابنه وأحفاده . وراحت القرون المتعاقبة بما اجتمع لها من موفور السوابق ، تصوغ بإحكام وتفصيل مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة . وقد لفقت هذه المسألة فى أثواب فلسفة عامة ، استوحيت مما دار بين الفقهاء ، وعلماء اللاهوت من كتابات متنازعة متضاربة ، وكانت القالب الذى صيغت فيه أعظم قصيدة أنشدت فى العصور الوسطى ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن أشد البابوات والأباطرة نزوعا إلى السياسة ، ربما ترددوا فى مواصلة الفكرة حتى نهايتها المنطقية ، فإن الصراع بين السلطتين الاستبداديتين لم يكن يحله عمليا إلا الدفع بقوة « الأمر الواقع والظرف القاهر Jorçe maeure

ومع ذلك فإن تلك المتناقضات لم تتم صياغتها حتى وقتذاك بوضوح تام ، حتى ليخالجنا الشك فى أن شرلمان قد تدبر تماما فى المشكلة الدستورية من حيث علاقتها ببيزنطة . إذ كان فى الغرب جماعة زعمت أن العرش الإمبراطورى يعتبر شاغرا ، وذلك نظرا لأن إيرين سملت عينى ولدها الإمبراطور وزجت به فى السجن ، وبذلك انفردت بالحكم امرأة تولت عرش القياصرة . غير أن مفاوضات شرلمان مع بيزنطة التى طال أمرها وانتهت آخر الأمر بالاعتراف به إمبراطورا « باسيليوس » فى (٨١٢) مقابل تنازله عن فتوحه فى دالماتيا، تدل أنه لم يكن يشارك فى هذا الرأى . ولا شك أن الفكرة التى ظلت قائمة هى

أن هناك إمبراطورية رومانية (Imperium Romanum) واحدة يحكمها فى الشرق والغرب إمبراطوران متعادلان ، بيد أن أحوال أوربا المتغيرة قطعت كل علاقة بينها وبين الحقائق القائمة . ذلك أن الفروق والاختلافات بين الشقين فى القانون والإدارة وفى الدين والثقافة واللغة وفى المصالح الاقتصادية قد فصلت بين الشقين الشرقى والغربى ، اللذين افترقا حتى فى ذلك الحين نفسه افتراقا جغرافيا ، بما اندس بينهما فى شبه جزيرة البلقان من ممالك صقلبية . والواقع العملى أن العلاقات بين الإمبراطورية الغربية (التى يمكن منذ ذلك الحين إطلاق ذلك الاسم عليها) وبين شقيقتها البيزنطية كانت أشبه تماما بالعلاقات بين دولتين أجنبيتين ، لا تحفلان إلا بالحرص على المحافظة على حدودهما والتسوية السلمية لما بينهما من منازعات ، وإن لم تعد تجمعهما بعد نظرة مشتركة إلى المتبربرين .

ولا شك أن المركز السامى الذى بلغه شرلمان فى أوربا الغربية والذى أضفيت عليه الصفة الرسمية بعد تتويجه إمبراطورا فى (٨٠٠) ، لم يتهيأ له إلا بفضل نشاطه المدهش الدائب فى إدارة الحكم داخليا فضلا عن الفتوح الخارجية . فقد تمت فى حكمه الطويل الذى امتد ستا وأربعين سنة مالا يقل عن ستين حملة حربية ، قاد الملك الفرنجى نصفها بنفسه . ففى كل عام ، وبعد عقد الاجتماع السنوى للجمعية العامة فى ميدان مايو ، كان المجندون الوافدون من أقرب المناطق إلى التخوم المتنازع عليها ، يقادون على بلاد العدو فى حملات عاتية مجردة من كل رحمة . فما قوره ألكوين ببساطة تامة فى إحدى المناسبات قوله : « خرج الملك بجيشه لينزل الخراب بسكسونيا » .

على أن عددا كثيرا من هذه الحملات قد أجرى دفاعا عن الحدود ، فإن فتح پيپين لمقاطعة أكيتانيا دعا شرلمان فيما بعد إلى عبور البرانس لتأسيس « ولاية ثغور » أسبانية . كما أن تحويل باڤاريا من دوقية شبه مستقلة إلى جزء حقيقى من الإمبراطورية اقتضى تدمير مملكة الآڤار الواقعة على نهر الثيس

والتى تنزع دائما إلى العدوان . على أن أعظم فتوح شرلمان قاطبة وهو فتح وسط ألمانيا وشمالها ، وإن كان الأصل فيه الانتقام من السكسون بسبب غاراتهم على أديرة منطقة الراين ، إلا أنه تجاوز كثيرا هدفه الأول . ولم ينته عهد شرلمان حتى كانت حدود الإمبراطورية قد زحفت من نهر الراين إلى نهر الإلب ، وبذلك تكون المنطقة المترامية الواقعة بين النهرين قد ضمت إلى الإمبراطورية فى أيامه ، كما اتخذ التنظيم الإدارى والكنسى بألمانيا صورته فى العصور الوسطى .

على أن السجلات المعاصرة لاتلقى الشىء الكثير من الضوء على الناحية العسكرية من هذه المنجزات الباهرة ، وذلك لأن تلك السجلات كثيرا ماتتسم بسمة البلاغات الرسمية . وكانت البلاد مليئة بالعوائق الطبيعية الكئود ، إذ كانت مناطق مترامية منها مكسوة بالغابات أو المستنقعات . وكانت ممتلكات السكسون تبدأ على مسافة بضعة فراسخ من الشاطىء الأيمن لنهر الراين ، وتمتد إلى نهر الإلب عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات ، وهى المنطقة التى نزلها على التعاقب الوستفاليون والأنجراريون والإيستيفاليون . وإلى الشمال الذى هو أعسر مدخلا بكثير ، كانت تمتد منطقة المستنقعات الساحلية الموجودة بين مصبي الويزر والإلب ، ويقوم وراءها عند قاعدة شبه الجزيرة الدانمركية ، موطن النورد البنچيين (Nordalbingians) آخر المدافعين عن استقلال السكسون . ومع أن الحملات التأديبية كانت تجرد فى كل صيف تقريبا بين عامى (٧٧٢ و ٧٨٠) وهى السنة التى بلغت فيها الفتوح نهر الإلب ، فإنه يبدو أن أحدا لم يفكر قط فى القيام بحملات فتح منظم حتى ذلك الحين ، باستثناء ما كان من إقامة حكومة أطراف بمنطقة الرور ، تدعمها مجموعة مثلثة من الحصون المشيدة فى هرزبرج وزيبرج وكارلزبرج . ومع ذلك فإن تعاون المبشرين الذى شهدناه قائماً فى فترة التحالف بين بونيفاس وشارل مارتل[1] ، قد تواصل ،

(١) انظر الفصل ١٣ بعنوان روما والكنيسة الكلتية .

كما يبدو أن الجمع بين هجمات الإرهابيين والدعاية للمسيحية كان من سياسة شرلمان التقليدية الثابتة التى اتخذها لبث التعليم والثقافة فى سكسونيا . وهى سياسة غير رشيدة ، لم تلبث عواقبها السيئة حتى ظهرت وشيكا . إذ كان العصيان السرى ينتشر فى الغابات الجرمانية . إذ ظهر بوستفاليا زعيم اسمه ويدوكند ، وانضم إليه الأنصار فى جميع النواحى الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن كانت الأديرة تحرق ويضطر القساوسة إلى الفرار ، كما أن قوة فرنجية ضخمة كانت تزحف نحو الشرق على الصقالبة ، مزقت على نهر الويزر وتشتت شملها . وعندئذ صمم شرلمان أن يفتح تلك المناطق فتحا فعليا . وهنا لجأ ويدوكند إلى الدانمركيين ، وأعمل الفرنجة الذبح فى ٤٥٠٠ من الأسرى السكسون عند ڤردان بدون أدنى مبالاة . على أن حملات الصيف العنيفة مالبثت أن أخضعت إيستفاليا خضوعا ظاهريا ، واضطر شرلمان فى (٧٨٤) أن يقضى الشتاء كله فى ألمانيا استعدادا للحملة النهائية . وعند نهاية (٧٨٥) تم إخضاع سكسونيا بأكملها ، فيما عدا منطقة المستنقعات الساحلية فى الشمال والمنطقة الواقعة من وراء الإلب .

على أن النصر لم يكن تاما مؤزرا على الصورة التى تحدثت بها رسائل شرلمان المزهوة إلى البابا . ولا كانت التدابير اتخذت من النوع الذى يتمخض عن توطيد المكاسب وشد أواصرها . ومن ثم فإن مرسوم إعلان تسليم السكسون (Saxon Capitulary) الذى يرجح صدوره غداة الفتح ، يمكن اعتباره دراسة شائقة فى الإكراه والقهر . إذ قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق يحكمها كونتات ، من حقهم وحدهم بالإضافة إلى مندوبى الملك (Missi) ، توجيه الدعوة لعقد جمعية عمومية . على أن الكنيسة كانت الأداة القوية التى يستخدمها طغيان الفرنجة . إذ يختتم المرسوم بالعبارة التالية : « على القسس أن يراعوا

ألا تعصى هذه الأوامر » . ومعنى هذا أن جرة قلم واحدة كانت فى نظرهم كفيلة بإزالة الوثنية ، وقادرة على إجراء تغيير شامل فى أسلوب الحياة السكسونية بأكملها من المهد إلى اللحد . إذ إن الامتناع عن قبول التنصير كان جزاؤه الموت . وكان أكل اللحم فى أثناء الصيام الكبير يستوجب العقوبة عينها . كما فرضت الغرامات الفادحة على كل من لم يعمد ابنه قبل نهاية السنة ، على حين صار إحراق الجثث الجنائزى على ماجرت به عادة السكسون والنورسيين يعتبر من الكبائر العظمى . ومما يشهد بما تنطوى عليه ديانة السكسون من طبيعة بدائية وتوحش ، ما صدر من أوامر تحرم ممارسة شعائر من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الأضاحى البشرية وتفرض عقوبة الإعدام على مخالفة هذه الأوامر . ومما يزيدنا عجباً أن يظن ولاة الأمور آنذاك أن من الممكن أن تطبق فى هذا القطر العسير القياد وغير المروض أحكام نظام يتولى فيه قسيس الأبروشية الأجنبى الذى يعيش على مايستخلصه من جمهور المصلين من الخدمات القهرية والعشور ، باستخدام شعيرة الاعتراف[1] سلاحاً سياسياً ، يكفل الخضوع والولاء للملك والشعب المسيحى ، أى الفرنجة .

وأدرك ألكوين الخطر ، وعبر عن معارضته لتلك الإجراءات بطائفة لاذعة من الأقوال المأثورة . فهو يصرخ : « يقول الناس إن العشور هى التى قوضت عقيدة السكسون » ـ ويقول : « وينبغى للمرء أن يدرك فوق هذا أن العقيدة تنبع من الإرادة الحرة ، لا من القهر . فكيف يستطاع إجبار الإنسان على الإيمان بما لا يؤمن به ؟ وربما أمكنك أن تجر إنساناً إلى حوض التعميد جراً ، أما إلى العقيدة فلا » . ولكن أحداً لم يأبه بتحذيراته . وانقضت بضع سنوات بدا فيها أن كل شىء يمضى على خير ما يرام ؛ حتى لقد

(١) انظر إعلان تسلم السكسون المادة ١٤

استخدم السكسون فى حرب النخوم وسُيِّروا على الصقالبة والآفار . ولكن صدورهم كانت تضطرم خفية بالاستياء الغاضب، الذى اشتعل فى النهاية عصياناً، لم ينشب لهيبه حتى انتشر بسرعة فى كل أرجاء ألمانيا . فتعرضت الكنائس للحريق والنهب ، ولقى الأساقفة والقسس مصارعهم ، وأصبح كل ما أقامه الفرنجة من نظم عرضة للدمار . وأخذ شرلمان على غرة ، فلم يستطع حشد قواته على الفور ، بيد أن مقاومة السكسون لم تلبث حتى قضت عليها فى السنوات التالية قضاء نهائياً حملات جيوش زحفت من جميع الجهات ، وفى (٧٩٧) أخضع كل شىء حتى منطقة السواحل الشمالية ذاتها ، ملجأ الثائرين الفارين من وجه الدولة . وفى خريف تلك السنة ، صدر فى آخن (ايكس لاشابل) دستور جديد لسكسونيا ، بعد مشاورات لم يشترك فيها فحسب كونتات وأساقفة من الفرنجة ، بل حضرها أيضاً مندوبون عن الأقطار الجرمانية . وبمقتضى ذلك الدستور أُلغيت جميع القوانين الجائرة التى أصدرها الفاتح ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سكسونيا تحكم بطريقة تماثل طرق الحكم الشائعة بالأقطار الفرنجية الأخرى . وكانت المرحلة الأخيرة هى مرحلة ترويض منطقة نورد البيبجيا العسيرة القياد ، ولكن ذلك لم يتحقق إلا فى (٨٠٤) ، يوم سيرت عليها آخر حملة نظامية فى حكم شرلمان ، بإرغام السكان على النزوح قهراً إلى شطر آخر من مملكة الفرنجة ، ومنح بلادهم للأبودريين Abodrites ، وهم شعب صقلبى مجاور أظهر ولاء كحليف للفرنجة .

حروب الآفار ورونسيسفال

كانت منطقة الحدود التى أطلق عليها فيما بعد اسم منطقة « دانيا » ، هى المعقل الشمالى لمجموعة من مناطق « الأطراف العسكرية » التى يتولى ضبطها نخبة منتقاة من القواد أُحسن اختيارها ، وقد أُطلق عليهم فيما بعد اسم

المـارجريف (Margraves) أى كونتات وحكام (Grafs) الأطراف والثغور (Mark) . ومع أن دولة الفرنجة لم يكن لها إلا سيادة مفـككة على الصقالبة فى الشرق ، فإن نهرى الإلب والسال يعتبران فعلا الحدود الحقيقية لمملكة الفرنجة. ثم هناك فى أقصى الجنوب باڤاريا التى ألحقت بالإمبراطورية ، والتى تقع وراءها ببلاد المجر مملكة الآڤار . وقد استولى الآڤار كأسلافهم الهون البدو الرحل ، على موقع ممتاز فى أوربا الوسطى ، على الحافة الغربية لنطاق السهوب الأسيوى العظيم ، وظلوا قرنين من الزمان يلقون الرعب فى قلوب الشعوب النازلة فى المنطقة المترامية بين البلطيق والپيلوبونيز (المورة) ، وقد هددوا بيزنطة نفسها أكثر من مرة . على أن قوتهم أصابها الوهن قبيل تلك الفترة، فتخلص من نير الآڤار كثير من القبائل الصقلبية التى كان الغاصبون يعيشون على كدها . بيد أنهم كانوا لا يزالون من القوة بحيث يهددون الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية ، حتى إذا هدأ السكسون قليلا وأتاحوا للدولة فترة هدوء قصيرة ، بادرت جيوش شرلمان باتخاذ خطة الهجوم . وتقدم إريك (Eric) دوق فريولى على الدانوب فاقتحم الحلقة الكبيرة ، التى تتكون من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسى لدى الآڤار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة والأوعية الغالية ، وهى الغنائم التى حصلت عليها أجيال الآڤار المتعاقبة ، التى يرجح أن معظمها قد انتهب من مدن الإمبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . ثم توالت بعد ذلك الحملات التى تم بها القضاء على الآڤار .

وقد أصبحت النمسا تؤلف عند ذاك جزءا من الإمبراطورية ، وشرع مستوطنون من جرمان باڤاريا[1] يستقرون فيها وفى الجزء الغربى من المجر .

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر بعنوان انحلال إمبراطورية الآڤار .

وهنا أصبحت المناطق الشرقية نفسها من المجر تعتبر جزءا من الإمبراطورية . وبذلك عاد إلى الوجود بعد قرون عديدة خط حدود پانونيا المعروف عند قدماء الرومان.

هنا أصبحت الكتلة الضخمة الفسيحة من أراضى أوربا الغربية عدا أسپانيا وجنوب إيطاليا تحت سيد واحد للمرة الثانية ، يبسط سلطانه على طبقة حاكمة من نبلاء الفرنجة والأكيتانيين والألامان واللومبارد ، ويحرك بسرعة مدهشة لا يكاد يصدقها عقل جيوشاً من أحد أطراف ممتلكاته إلى الطرف الآخر ، لكى يدفع إلى الخلف تخوم الوثنية المعادية . ولا شك أن هذا المثل الاتحادى الأعلى للإمبراطورية المسيحية المقاتلة ، هو الذى فرض طابعه القاهر على حضارة القرون الوسطى فى الغرب ، وهو الذى عاش بعد تقسيم المملكة الكارولنجية إلى عدد كبير من الإمارات المقاتلة ، والذى لعله لا يزال يعمل عمله باعتباره ضربا من مجتمع للمشاعر داخل نطاق مجموعة الأمم الأوربية .

ولم يتجل ذلك المبدأ الاتحادى بوضوح أشد من تجليه فى تلك الهالة السحرية الرومانسية التى تحيط بذكريات يوم رونسيسڤال الفاجع . إذ انحدر شرلمان إلى أسپانيا بدعوة من حليفه المسلم حاكم برشلونة العربى ، الذى كان يحاول التخلص من سيطرة الخليفة الأموى بقرطبة . وعندى أن تحالف شرلمان مع ذلك الحاكم المسلم له أهميته التى تعادل فى قيمتها أن أول نصر أحرزه الفرنجة هو استيلاؤهم على مدينة پامپيلونا ، وهى مدينة تابعة لمملكة استورياس المسيحية . على أن الحملة أخفقت فى الاستيلاء على سر قسطة ، وبينما كانت طوابير الجند المتقهقرة تعرج ببطء فى ممرات البرانس الضيقة ، تعرضت مؤخرتهم لهجوم الباسك (البشكنس) ، وهم شعب مسيحى معاد للفرنجة — حتى أبيدت برمتها . ولم يتيسر للفرنجة الانتقام منهم على تلك الكارثة ، غير أن الحملات التالية التى وجهت على ذلك الإقليم الوعر ،

تمكنت فى النهاية من إنشاء منطقة الأطراف (الثغور) الأسبانية فى المنطقة التى تقع جنوب جبال البرانس مباشرة . على أن الأساطير التى تطلق لنفسها العنان فى العبث بالحقائق التاريخية ، تحول غارة (٧٧٨) الفاشلة تلك إلى حملة صليبية مجيدة . أما اشتباك المؤخرة مع الباسك وما أصابها على يديهم من حظ عاثر ، فقد حولته الأسطورة إلى معركة احتشد فيها من جيوش الوثنيين ما لم تشهد بلاد لعددهم مثيلا ، وقهروا فرسان الإمبراطور المغاوير الذين سقطوا فى ساحة الشهادة دفاعاً عن الايمان والعقيدة . وبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية لا فى تفاصيلها الحقيقية الدقيقة بل فى صورة المثل الأعلى الذائع الانتشار للفروسية المسيحية ، وجعل منها تلك الملحمة الفاخرة التى تسمى « أنشودة رولان Chanson de Roland » ، فأصبحت بذلك قطعة خالدة من تراث أوربا الخيالى .

نظام الإدارة الكارولنجية

كان الجهاز الذى سيطر به شرلمان على شئون إمبراطوريته الضخمة جهازا غلبت عليه السمة الجرمانية ، شأن الجهاز الذى استخدمه الميروفنجيون . فإن معظم النظم كانت لاتزال قائمة ، مثل إدارة الحكم المحلى بواسطة الكونتات ومرءوسيهم من الموظفين ، ومثل نظام القضاء العنصرى والمجالس السنوية . هذا إلى أن الطابع الشخصى والمرن غير المحدد الذى يتسم به الحكم لدى الفرنجة ، والذى سبق لنا موازنته بالحكم الرومانى الثابت التجريدى[1] ، ظل قائماً ومعمولا به فى ظل الحكم الإمبراطورى نفسه . إذ لم يبرح الإمبراطور يعد إلى حدما قائد المقاتلين التيوتون فى الحرب ، الذى يحيط به ثقاته من زملائه فى السلاح ، الذين كانت خدماتهم له موضع التبادل بين الطرفين دائماً .

(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الحكم الرومانى والجرمانى .

ويجوز أن يتولى كونتات القصر قيادة الجيوش على الحدود، كما يقوم «الصنجيل» (Seneschal) بإدارة حركة المطبخ، أو يرسل «القهرمان» فى سفارة دبلوماسية إلى باڤاريا .

وكانت الإدارة المالية بدائية بالمثل . إذ إن نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميروفنچيين ، وجعل نظام الضرائب فى أبسط الصور ، إذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة . وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات . فضلا عن استضافة مندوبى الإمبراطور ومدهم بالمؤن . على أنه ينبغى ألا تضللنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرلمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار ، تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة ، وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الچرمان يقوم على فكرة « الخزانة » الملكية . وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع ، تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الإجبارية . ومن هنا يستبان أن القائد التيوتونى كان يكافئ أتباعه بما يمنحهم من الأراضى ، وما يهبهم من الامتيازات المحلية فى القضاء والضرائب التى يتنزل لهم عنها باعتبارها ملكا خاصاً له . على أن الظروف المعقدة الناجمة عن المزج بين الثقافتين الرومانية والچرمانية ، وتولى الچرمان السيادة فى أقطار منحتها روما حضارة متقدمة ، عرضت هذه القرارات إلى مالا حصر له من صنوف التفرقة والقيود . ومع ذلك يظل الفرق والتباين عظيما بين الإمبراطورية البيزنطية التى هى الاستمرار المباشر لروما بما لها من جهاز خدمة مدنية ، وما لها من جهاز للضرائب معقد ومنظم ، وما لها من جيش وأسطول دائمين ؛ وبين الأقطار الرومانية الچرمانية فى غرب أوربا ،

التى كانت السلطة المركزية فيها لا تقوم على موارد مالية مستديمة ولا تستند إلى تنظيم إدارى ، وإنما ترتكز فقط على التزامات من خدمات شخصية وولاء شخصى يؤديان للحاكم مباشرة من كل فرد من أفراد رعيته . على أن هناك سلطة متوسطة نمت بين الملك والرعية ناجمة عن ظهور عوامل النظام الإقطاعى التى بدت بوادرها فى تلك المدة ، ولم يكن بد لنموها من أن تقوض سلطات ملكية من ذلك النوع لا تستطيع فعلا أن تتخلى عن شطر من سلطتها دون أن تضيعها بأكملها .

وتتجلى العملية واضحة فى الجيش الكارولنجى . ولعل الخدمة العسكرية كانت أفدح الأعباء التى تفرضها الدولة على رعاياها ، كما أن نفقات التسلح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير ، الذى كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقاً لما جرت عليه عادة الجرمان . واتخذت بعض الإجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية إن كانت الحملة موجهة إلى منطقة نائية من الحدود ، وكثيراً ما كان يسمح لاثنين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معاً فى إرسال رجل واحد إلى « الجيش » ، وتزويده بالعتاد . على أن ذلك لم يكن كافياً . فقد ولت منذ زمن بعيد تلك الظروف التى كانت تيسر فى الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار فى القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب فى الوضع الاقتصادى . إذ تزايد التفاوت فى ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويداً رويداً الحرفة الوحيدة التى اختص بها السادة الإقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع . وينتمى إلى الفئة الأخيرة كل من وهب إقطاعاً ، أو توصلوا عن طريق « التوصية » إلى الارتباط بعلاقة تبعية مع « السيد الإقطاعى » اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية[1] . هذا وإن التغير الذى تحول بمقتضاه

(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الحكم الرومانى والجرمانى .

الجيش ـ وهو فى الأصل مجموعة من الأحرار لا يربطهم بقائدهم فى الحرب إلا رابطة الولاء ـ إلى هيئة مجمعة من الفصائل التابعة لسيدها الإقطاعى التى لايتولى فيها الملك بوصفه المولى الإقطاعى الأعلى القيادة إلاعن طريق أتباعه من النبلاء ، إنما هو وضع لا ينتمى فى الحقيقة إلا إلى القرون التى أعقبت ذلك . ولكن شرلمان اعترف فعلا بالوضع الرسمى لكبار السادة الإقطاعيين عندما أمر المجندة بالتقدم إلى مواطن الاحتشاد المحددة إما بقيادة الكونت الحاكم الإمبراطورى بالمنطقة ، وإما تحت إمرة سادتهم الإقطاعيين المحليين ، ولم يعد بعيداً الزمن الذى أصبحت فيه التبعية وراثية ، والذى صار فيه ولاء الأتباع مقصورا على سادتهم المباشرين ، والذى يقوم فيه النبلاء فى ظل ملكية ضعيفة كريهة ، بقيادة قواتهم لتدمير السلطة المركزية .

ومع ذلك فقد حدث مؤقتاً أن شرلمان بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافقة ، استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والضبط على أملاكه المترامية الأطراف . وكان كل كونت من أتباعه يحكم منطقة من الإمبراطورية ، وقد فوضوا لا فى مراجعة أتباعهم فحسب ، بل فى الرقابة أيضاً على أعمال موظفى السادة الإقطاعيين من الكنسيين والعلمانيين سواء . يضاف إلى ذلك ماحدث من نمو نظام المبعوثين الملكيين رغبة فى حبك أطراف السلسلة التى تربط بين الحاكم وبين كل فرد من أفراد رعيته . وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها إلى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات ، يطوف بها اثنان من المبعوثين فى كل عام عادة ، أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ، ويتوليان الشئون القضائية . وكان مجال واجباتهما رحيباً . فلم يكن من واجبهما فقط الإشراف على يمين الولاء الذى تقسمه الرعية للإمبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غابات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقى جزاءه على جريمته

وأن العدالة تجرى مجراها ، وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة ، « لكى يتأكدا أن القسس يراعون نظمهم ، وأن الرهبان يتبعون بإخلاص قواعد القديس بنيدكت ، وأن ما أصدره الإمبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ ، وأن كتب الإيمان مطهرة من كل خطأ ، وأن المبانى تصان ، وأن الشعب يحضر القداس فى أيام الآحاد ، وأنه يعرف عقيدته فيعلم « قانون الإيمان » وصلاة « أبانا الذى فى السموات ... » وأنه لم تضلله الخزعبلات القديمة »[1] .

القوانين الكارولنجية

وقد خلف لنا ثيودولف أسقف أورليان صورة وصفية رائعة لمسير هذين المبعوثين ، وهو أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة ، وكان هو نفسه أحد هؤلاء المبعوثين وإن تصويره الدقيق للتفاصيل ، وما عرف عنه من روح إنسانية رحبة وفكاهة ماكرة ونظرة ناضجة حصيفة ، مختلفة كل الاختلاف عن نظرة رجال الأديرة المشوبة بالبراءة أو التعصب اللذين اتصف بهما كثير من معاصريه ، — كل ذلك يبعث الثقة فى روايته التى تعرض علينا فى وضوح مشرق ، الأحوال فى جنوب فرنسا عند نهاية القرن الثامن . وهى ترسم مرحلة أخرى جديدة فى عملية التحول التى سجلها من قبل أوسونيوس وسيدونيوس وأپولينارس وجريجورى أسقف تور[2] . وتتجلى ذكرياته الشخصية فى رسالته : « نصيحة إلى القضاة » وهى ثمرة الخبرة التى اكتسبها فى أثناء جولاته فى الجنوب. وهو يصف بلمسات من قلمه ضروب التباين بين مناظر پروڤانس — كالتلال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق والأخاديد

(١) انظر لافيس فى (Histoire de France) ج ٢ ص ٣١٩ (باريس ١٩٠٣) .

(٢) انظر ماقبله ص ٦١ ، ١٢٠ ، (الفصل ١٢) وخريطتى فرنسا فى عهد الميروفنجيين .

١٧ — صورة صليب بيوكاسل ، نقوش على وجهه الشرقى

الراكدة الخانقة الهواء ومستنقعات المناطق الساحلية القاتلة كريهة الرائحة ومنحدرات نهر الرون العريضة والمدن الفاخرة التى تحيط بها الأسوار العالية : مثل آرل واڤينيون ونيم وأورانج ومارسيليا وكثير غيرها مما ورد ذكره فى تلك القصيدة . ثم يحملنا الكاتب بعد ذلك إلى دار المحكمة فى (ناربونة) . وهى لاشك ليست إلا بناء مجلس مدينة رومانيا قديماً ، كان حتى ذلك الحين يزين العاصمة السابقة للإقليم . وقد احتشد حول مدخلها المرتفع جمهور من المتقاضين يعج بالضجيج . ويدخل القاضى إلى قاعة المحكمة بعد حضوره القداس يصحبه كاتب ، ثم يعمد الحاجب بعد إدخاله إلى ساحة المحكمة كل من لهم الحق فى حضور الجلسة ، إلى إقفال الأبواب دون أعين جمهرة من المشاهدين الفضوليين . ويتخذ القاضى جلسته الوقور على الكرسى ذى الأرجل المقوسة يحيط به وجهاء المدينة ، ثم يعمد إلى اختيار مستشاريه القانونيين . وعندئذ يبدأ عمل اليوم . ويتوقف ثيودولف عند هذه النقطة لكى يوجه النصح فى الإجراءات . فيقول: ينبغى للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغى له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثرثار ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوى ـ على أنه ينبغى مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصا يقرع بها الأكتاف والرءوس ، كما ذاع عن بعض ضيق الصدر من القضاة .

ويؤكد المؤلف وهو ينحدر من سلالة القوط الغربيين وممن درج على التقاليد الرومانية القانونية ـ تشديده على عيوب الطريقة الجرمانية فى الإدلاء بالمعلومات ودحضها بواسطة الأيمن ـ وهو يرى أن وسائل حلف اليمين بأجمعها وبكل ما حوت من أساليب إثبات واتهامات يدعمها القسم وتملأ

المحكمة بالصيحات الصاخبة التى تجأر « بنعم وكلا » ليست جميعاً إلا أموراً قاصرة تعوزها الكفاية ، وهو يفضل أن يمضى القاضى فى عمله « بالتحقيق » والاستقصاء ، الذى يتم عن طريق شهود عدول ثبتت أهليتهم ، بعد أن استجوبهم القاضى على انفراد . وإنه ليأبى كذلك الموافقة على المبدأ الجرمانى الذى يجعل العقار والممتلكات أهم كثيراً من الحياة ذاتها . وقد راعه أن يجازى مرتكب السرقة بالصلب أو قطع اليد وفقء العين ، بينما يمكن التغاضى عن القتل بدفع الدية اللازمة . على أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشى . فكل إنسان فاسدٌ ومرتش : — الحاجب على بوابته والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل إن زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة ، فهى لا تزال تحوم حول عنق زوجها متشفعة إليه ضارعة ، فى حين أن مربيتها وخادمتها الوقحة الصغيرة تلومان سيدهما على قسوته عليها .

ومن الجلى أن ثيودولف عالج فى حديثه كثيراً من الأشياء التى قذفت عليه ، كأنما هى آلات حصار عديدة سلطت عليه لتدمير حصون استقامته . فمن هذه القذائف (أعنى الرشى) الأوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفاً عربية والديباج الموشَّى بأشكال الثيران وبنماذج هندسية ذات تصميم أسيوى ، وهناك أيضاً الأسلحة والخيل ، على أن أثمن هذه الكنوز جميعاً وعاء من الفضة يرجع إلى عهد الإمبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشاً بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتقاضون من الفئات المتواضعة ، فلم يكونوا أقل إصراراً على تقديم ما لديهم من هدايا من جلود قرطبة المبيضة أو المصنوعة والمنسوجات الكتانية والصوفية ، والأحذية والقبعات والقفازات ، فضلا عن مناشف الوجه ، على حين أن شخصاً ما كرا عرف فيما يحتمل ذوق الأسقف الأدبى ، فأخرج إليه لفافة من « رق » الكتابة

الأرجوانى مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب . ولكن القاضى النزيه يرفض كل هاته الهدايا ، على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم ـ مثل ثمار الحدائق والبساتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن الماعز وصغار الدجاج اللينة والطيور « الصغيرة حجما واللذيذة طعما » .

والركب الذى يمر أمامنا فى ضياء شمس بروفانس المشرقة ، موكب بالغ التنوع زاخر بالألوان ، مؤلف من أجناس مخلطة . ولا شك أن قدرا كبيرا من حياة روما القديمة لا يزال باقياً ؛ فعلى الرغم من أثر الفرنجة ونفوذهم ، فإن الإجراءات العامة بالمحكمة ، بما لها من قاض رئيس وجو أرستقراطى ، وما لها من مراسم تبعث الرهبة ، وما حفل به جدول قضاياها المعقد الذى تدور منازعاته حول العقود والوصايا ، إنما هى أبعد ما تكون حقاً من الجمعيات (المجالس) الجرمانية البدائية المكونة من المحاربين الأحرار . ومع ذلك فإن ما حفل به خيال العصور الوسطى من الرعب والمخاوف القاتمة ، يقف بكامل قوته من وراء هذا العالم الماثل أمامنا . فإن ثيودولف يروح فى مجموعة قوية ومعتمة من الموازنات ، فيوازن بين ثياب الذهب والحرير والفراء والعطور ورقيق الأطعمة والخمور والمساكن الرحبة والممتلكات العديدة ، وتزاحم الموالى والعملاء حول الرجل الغنى فى هذه الحياة الدنيا وبين القذارة والضيق والفقر والوحدة المطلقة ، وما يصيب الجسد فى القبر من تحلل رهيب . وإن أوصافه لليوم الآخر بما فيه من رعود ونفخ مدوٍّ فى الصور[1] ، وإن عولجت بالطريقة التقليدية ، إلا أنها يمكن أن تتخذ شرحاً ونصاً صريحاً يعبر عن العديد الذى لا حصر له من النقوش البارزة المنقورة على بوابات الكاتدرائيات المشيدة على الطراز الرومانسكى أو القوطى .

(١) الصور كما ورد فى القرآن الكريم شىء كالقرن ينفخ فيه . [المترجم]

بلاط شرلمان

والراجح أن شخصية شرلمان الأسطورية ، التى جعلت منه عملاقا ضخما تمتد لحيته إلى وسطه لا تقوم على أساس من الحقيقة . إذ الظاهر أنه كان طويل القامة حقاً ، ولكنه ليس ذا طول خارق للمعتاد ، وأنه كان قصير العنق ، وكان له بطن بارز ورأس مستدير وعينان كبيرتان معبرتان ، وكان له أنف أقرب إلى الطول وشعر غزير ؛ وكان حليق اللحية ، إلا من الشارب الفرنجى المألوف . ويتسم طبعه بالمودة والبساطة ، فكان يستطيع من ثم أن يتجول بين حشد من رعاياه فى أثناء الاجتماع السنوى ، وتوجيه العبارة المناسبة لكل منهم فيكتسب بذلك ثقتهم ، ويلتقط منهم التعليقات الحكيمة على الأحوال المحلية . ولما اشتهر به من الاستقامة والإخلاص والخلق القوى والحساسية المرهفة وبعد الهمة الذى لا حد له والشغف بجمع التفاصيل ، أثر فى معاصريه بقوة شخصيته وعذوبتها بقدر ما أثر فيهم بعظمة أعماله .

وقد وصلت إلينا ثروة ضخمة من الحوادث والنوادر التى تدور حول شرلمان وبلاطه ، وذلك لأن الحوليات الهزيلة التى كتبها مؤرخو الأديرة لم تلبث أن عززها فجأة مجموعة رائعة من الشعراء الذين حاولوا فى محاكاة دقيقة لأوڤيد وڤرجيل تصوير المناظر التى يعيشون بين ظهرانيها . ولعل الترجمة البسيطة الطريفة والذائعة الصيت التى كتبها رينهارت عن حياة شرلمان أثمن لنا من هذا كله أو تكاد . فهى وإن تعرضت دون ريب لشىء من النقد فى تفاصيلها[1] ، تدفعنا إلى الاقتناع بصحة ما فيها بفضل قوة بيانها فى اللاتينية ، التى هيأت للكاتب أسلوبا مشرقاً اختص به شخصياً ، لا يضارعه فيه فيما

(١) ولكن أصداءها السويتونية أثارت الشكوك ، ومن الجلى أن المؤلف الذى كتب ما كتب بعد وفاة شرلمان لم يكن فى مركز يتيح له الحصول على معلومات جديدة من مصادر مباشرة أصيلة عن نواح معينة من سياسته .

يحتمل إلا بيده (Bede) فى أثناء القرون الثلاثة الأخيرة فى الغرب . وكان شرلمان نفسه هو السبب فى التعجيل بالانبجاس الرائع لهذه الطاقة الفكرية التى تشهد ثمار القرائح فيها بالتدريب السليم الدقيق فى علمى البيان والأجرومية (النحو) . وقد استدعى شرلمان إلى بلاطه أشهر علماء غرب أوربا فى عصره من إنجلترة وإرلندة ولومبارديا ، فاجتلب بطرس البيزى وبولس الشماس وأبناء وطنهما الآخرون كنوز العلوم الإيطالية إلى فرنسا ، كما واصل الاسكوتس (Scots) أى العلماء المتجولون القادمون من الأديرة الإرلندية عمل أسلافهم المبشرين وأثروا أثرهم التعليمى فى الإمبراطورية الفرنجية . ومع ذلك ، فلاشك أن ألكوين هو أهم شخصية قامت بتنظيم النهضة الكارولنجية ، فبفضل تعاليمه تحكمت المثل العليا للثقافة النورثمبريانية وطرائقها فى حركة إحياء العلوم ببلاط شرلمان . ففى أثناء القرن الثامن ، شهد الطرف الشرقى من إنجلترة الآثار المدهشة التى ترتبت على ازدهار حضارة أنجليا . وكان ذلك العصر ، هو عصر أناجيل ليندزفارن بما حوت من خطوط مونقة وتصوير فاخر ، وهو أيضاً عصر الأديرة العظيمة ومراكز العلم الكثيرة الزاهرة بكل من هكسهام وجارو ويورك ، وهو عصر بيده أشهر كتاب أوربا الغربية ، وكان عصر صلبان بيوكاسل ورانويل الضخمة التى يشهد ما نحت عليها من مناظر مقدسة تفوق فى وجدانها التشكيلى كل ما فى القارة من أعمال ، بوجود إمكانيات لم نصادفها فيما بعد لدى الفنانين الإنجليز المتأخرين من تصميمات لأشكال ورسوم خطية نمطية معبرة عن القصص . كانت ثقافة منتقاة سريعة النمو تولدت عن التقاء مؤثرات مختلفة فى أرض مملكة قوية لقوم من أشباه البرابرة . وربما أمكن التماس الإلهام الكلتى فى موضوعاتها الزخرفية وفى مجال دراساتها الكلاسيكية ، وكانت نتيجة استيراد بيسكوب البندكتى للمخطوطات وزخارف الكنائس من فرنسا وإيطاليا لزخرفة مؤسساته فى

چارو ومونـكسويرماوث (Monkswearmouth) دخول المؤثرات البيزنطية المنتشرة فى ذلك الوقت بجميع أرجاء القارة . ولا شك أن كفاية ألـكوين فى تنظيم المدارس وإعداد الخطط الدراسية ، تومئ إلى بقاء ما اشتهر به اليونان والرومان من طرق التدريس ، التى انتقلت فيما يبدو إلى حاضرة العلم فى يورك على يد ممثلى البابا بكانتربرى : هادريان وثيودور . على حين أن الشعر العجيب الذى كان يقرضه الغزاة الجرمان بكل ما حوى من أبطال ووحوش ، ومن فـكاهة بشعة ومن محاورة خفية ، كان لا يزال موضع إعجاب الرهبان النورثمبريين ، كما أنه انتقل إلى الـكتب المدرسية الـكارولنجية فى صورة ألغاز ومسائل فى شعر الحـكمة ، لا بد أنها كانت تبعث البهجة فى قلب شرلمان ، المعروف بشدة ولعه بأدب ملاحم الساجا التى خلفها أجداده الفرنجة . وبعد أفول نجم مملـكة نورثمبريا وما تلاه من ارتفاع شأن مرسيا أولا ثم وسكس بعد ذلك ، اعتلت تلك الثقافة ثم توارت فى النهاية عن الأنظار ، وداستها أقدام المغيرين الفيكنج ، ولـكن نظراً لأنها غرست فى تربة غالة ، مكتملة الازدهار ، فإنها أصبحت العنصر المتسلط فى أثناء عودة الحضارة الغربية إلى الانتعاش فى عصر الـكارلنجيين .

النهضة الـكارولنجية

منذ اللحظة التى وجد فيها المدافعون عن المسيحية أنه ينبغى لهم أن يحددوا مراكزهم بالنسبة إلى الدراسات الـكلاسيكية القديمة ، أصبحت دراسة الآداب تعد تمهيدا لغاية أعلى منها ، هى فهم أصول الدين (اللاهوت) . وقد أقر شرلمان قصدا هذا المثل الأعلى ، بيد أن الاعتبارات السياسية دفعته هى أيضاً فى ذلك الاتجاه نفسه ، بالنسبة لرجال الإدارة لديه سواء كانوا كنسيين أو علمانيين ، رغبة منه فى أن يحصلوا على مستوى خلقى وفـكرى

أعلى ، ولا يخفى أن وضع تنظيم وثيق الأركان محكم الربط لكل من الكنيسة والدولة كان يرفع من شأن مصالح الاثنتين التى اجتمعت كما هو معروف داخل وحدة الإمبراطورية المسيحية التى لاسبيل إلى فصمها . وبذا أصبحت مدرسة القصر فى آخن (Aix) مركزاً للنشاط الثقافى ، يشهده أفراد الأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة . وكثيراً ما كان تلاميذها يتولون رئاسة بعض ما كان بأرض الراين ومواطن أخرى من الأديرة الكبيرة التى مالبثت أن أصبحت مواطن للعلوم والفنون فى مناطقها ، ومراكز تضم المكتبات والمدارس وأساتذة الخورس (مرتلى الكنائس) وصناع الزجاج وتجار الجواهر ونساخى المخطوطات وقد نظم ثيودولف الأورليانى التعليم المحلى بأبروشيته . وأخذت مدن معينة بإيطاليا تشهد فعلا بمعاهدها التعليمية .

غير أن وسيلة التعبير التى استكشفت أخيراً قد استخدمها كتاب البلاط لافى التعبير عن الأغراض البيانية فحسب ، بل وأيضاً فى وصف مايحيط بهم من ملابسات . وهم يعرضون أمامنا مشهداً ذا ألوان زاهية بهيجة لبدايات ناضرة جديدة على خشونتها وسذاجتها . فيقولون عن قصر آخن الجديد ، إنه يقع فى وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الغزلان وتشقها الجداول ، التى ترتادها الطيور المائية المختلفة . وإنا لنسمع — من أوصافهم — صرير العربات وهى تجلب الكتل البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهى تقطع وتسوى ، على حين ترتفع الكنيسة العظيمة شيئاً فشيئاً ، حتى تطل قبتها المذهبة الشامخة على المبانى المنخفضة الممتدة التى يشغلها الملك وأفراد أسرته العديدون ، وتشرف على الفناء الذى يقع فيه تمثال لثيودوريك فى هيئة فارس ، وهو أعظم من سلف من الحكام الرومان الجرمان ؛ وقد نقل التمثال من راڤنا ، وتطل أيضاً على حمامات السباحة فى الهواء الطلق التى تحيط بها درج الرخام والتى يستطيع أن يستحم فيها فى وقت واحد شرلمان ومعه مائة من الرفقاء . وهناك

كثرة موفورة من الذهب ـ نجدها فى آنية الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة وعلى المائدة الإمبراطورية فى أيام الحفلات ، وفى السلاسل والخواتم الذهبية وفى الذهب المصوغ فى حمائل السيوف ومقابضها ؛ وفى شعر الأميرات الذهبى الباهت عندما يخرجن للقنص ساعة الفجر ، وتنفتح بوابات القصر عندما ينطلق منها الفرسان ويعلو صهيل الخيل ، ويشتد نباح كلاب الصيد العميق وترتفع الصيحات التى يتردد صداها فى الغابة المجاورة . وهناك الثياب الزاهية الألوان مابين عباءات طويلة بيضاء وزرقاء أو أردية صوفية قصيرة تلونها الخطوط المستقيمة أو المتقاطعة واللقم . على حين أن ثياب الحرير والكتان الرقيق تلبس داخل المنزل ، كما أن ملابس الحفلات وحلل التشريفة غنية بوشيها الجزل مطرزة الحافات بحبات اللؤلؤ .

ويزدحم القصر بمبعوثى جميع الشعوب ، فيهم ممثلو ملوك مرسيا أو نورثمبريا أو الرؤساء الدانمركيين أو الصقالبة أو رسل البابا أو الموظفون البيزنطيون أو المسلمون من أسبانيا وإفريقية . بل إن هرون الرشيد نفسه يرسل الهدايا من عاصمته النائية بغداد ، وبفضل ما كان لشرلمان من نفوذ عند الخليفة تمكن من الحصول على الامتيازات لحجاج بيت المقدس المسيحيين . وقد حرص كتاب هذا العصر على أن يدونوا بدقة أسماء السلع الأجنبية الواردة من أقطار نائية ؛ كالتوابل الآسيوية من الفلفل والقرنفل والقرفة وما شابهها ـ وهى تستخدم بكثرة لإخفاء نكهات الطعام والخمر ، أو كمواد مساعدة على الهضم . ولكن حاجات القصر الإمبراطورى كانت تسدها بصفة أساسية منتجات المزارع الملكية الضخمة ؛ التى تزود ذلك القصر بما يحتاجه من السمك ولحم الصيد والجبن والزبد والخردل والخل والشهد والشمع والصابون والخمر ، على حين يرد اسم الخيار والشمام والخرشوف والبازلاء والجزر والبصل والكراث والفجل أيضاً فى مرسوم الضيعة (Capitulare de villis) الذى يحتوى على التعليمات

اللازمة لتزويد الدور الريفية الملكية بطلباتها. والراجح أن طرق الرومان فى الزراعة بقيت بتلك الأراضى ، التى يحتمل أن بعضها كان من أملاك أباطرة الرومان المتوارثة .

الحياة فى آخن

إن الحياة هنا خليط عجيب من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة الذاوية . فإن إينهارت ورفاقه يدرسون ڤتروڤيوس فضلا عن ڤرجيل ، كما أن مانهب من راڤنا من أعمدة ورخام أدخل فى العمائر الجديدة ، مثلما أن ماقتبس من أوڤيد وسيتونيوس من عبارات يتجلى بوضوح فى مصنفات ذلك العصر . ومع ذلك ، فإن بالعمارة المعاصرة آيات تشهد بالنشاط ومحاولة التجريب ، كالتصميم النادر لكنيسة ثيودولف فى جرميني دى پريه (Germigny-des-prés) كالعمارة الشامخة لكنيسة سانت ريكييه أو دير القديس واندريل ببرجه الضخم الذى تعلوه منارة صغيرة مذهبة ، وتزينه غرفة الطعام الفسيحة التى تزدان جدرانها بمناظر تمثل الشهداء والشهادة والقصص المقدسة . ولا شك أن فى جو البلاط نفسه من المتناقضات ما لايقل عن هذا استرعاء للأنظار . ففى داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجند والرهبان والنبلاء والعلماء والسيدات المرحات والغلمان الرشقاء ، على الرغم مما قد ينشب بينهم من خلافات فى بعض الأحيان . ويتردد شرلمان نفسه على المدرسة طلباً للتعلم ، ويتنافس هو وأصدقاؤه ببالغ الشغف فى نقاط عجيبة فى علم الصرف أو العلوم . ومع ذلك فلم يكن هذا سوى متنفس واحد لطاقته الجسمية والفكرية الهائلة . ومن وراء كل هذا المرح وهذه الفخامة التى تتجلى فى آخن من ممارسة الصيد والسباحة والمؤامرات والفضائح ، يسير العمل الإدارى الجدى قدماً فى طريقه ، وفى كل صيف ينطلق فرسان الفرنجة للقتال خارج حدود العالم المسيحى .

على أن أحوال فرنسا فى مجملها لايجوز استنباطها من هذه الصورة لحياة البلاط . أجل إن حكومة شرلمان القوية حفظت النظام فى البلاد ، فانتعشت التجارة تبعاً لذلك ، ولا سيما فى مدن بروفانس ومنطقة الراين ؛ غير أنها لم تكن أساساً إلا تجارة فى أدوات الترف . ولم يحدث أى تغيير فجائى فى النظام الاقتصادى بأوربا الغربية . وتواصل قطع الغابات وترتب على ذلك نتيجته الطبيعية من زيادة رقعة الأرض القابلة للزراعة ؛ وأحرزت المزارع الضخمة المكاسب على حساب المزارع الصغيرة ، وأخذ مركز المالك الحر الصغير للأرض يزداد على الأيام تقلقلا واضطرابا . وكما كان الشأن قديماً ، تركزت حياة السكان حول الدور الريفية للسادة العلمانيين والكنسيين ؛ وصار الحد الأقصى للسكان الطاحون ودكانة الحداد والسوق المحلية والمحكمة .

عيوب سياسة شرلمان

توفي شرلمان فى آخن فى يوم ٢٨ يناير ٨١٤ ، وبزوال شخصيته البارزة لم تلبث الإمبراطورية الفرنجية الضخمة التى أتم بناءها ، أن هوت فريسة للتمزق والفوضى . فإن إينهارت الذى سطر ماألفه فى عصر خلفه لويس التقى كان ينظر إلى مامضى من أيام شرلمان ، نظرة الناس إلى عصر ذهبى أسطورى مضى . فما كان يتلألأ به بلاط شرلمان من الفخامة المتألقة التى بهرت أبصار معاصريه أعمتهم عن حقيقة إمبراطوريته وأنها دولة قلقة غير ثابتة ، مثلما أن ما اشتهر به شرلمان من هيبة وجاذبية شخصية وحصافة وكفاية إدارية ، أخفى عن أعينهم ما كان يعوزه من تدبير السياسة وبعد النظر . وإذا نظر إلى شرلمان على ضوء الأحداث التالية ، لم يبد فى صورة أول إمبراطور رومانى غربى ينحدر من سلالة أوغطس وقسطنطين ، وإنما يبدو بوصفه آخر ممثل لتلك السلسلة الطويلة من الأبطال والزعماء الذين قادوا المتبربرين فى هجراتهم

وتجولاتهم والذين يقوم على رأس قائمتهم الطويلة ألاريك وأتولف ، فإنه ماثلهم جميعاً فى احترامه للحضارة اليونانية الرومانية (الجرايكو رومانية) ، أو أقل . إنه انخرط إلى حد ما فى محرزات تلك الحضارة ؛ ولكن مما له دلالته أنه يشاطر ثيودوريك الأكبر أميته وعدم قدرته على كتابة شىء سوى توقيعه . على أنه يتفق وإياهم ، فى الحدود التى تحدده ، وهى أنهم جميعاً غزاة فاتحون عتاة أقوياء من الناحية التنفيذية ، ولكنهم يفتقرون إلى النجاح فى دعم المكاسب وربط ما فتحوه بعضه ببعض . وقد مد شرلمان حدوده إلى الإلب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وامتد إلى المنطقة الواقعة جنوب روما . ومع ذلك فإنه لم يثبت بصورة فعالة أى حد من حدوده باستثناء منطقة سكسونيا فيما يحتمل . ذلك أن إعوازه إلى أسطول وجيش دائم جعل شواحل فرنسا وإيطاليا تحت رحمة المغيرين من أهل الشمال والمسلمين ، كما أن هذا الظرف نفسه أفضى بمضى الزمن إلى استقلال كثير من مناطق حدود الدولة وأطرافها فعلا التى أصبح بعضها نواة لكثير من الدول الأوربية التى ظهرت فيما بعد مثل النمسا (Austria) وپروسيا . ولا شك أن إعواز شرلمان إلى سياسة مدروسة فى البحر المتوسط ، تعادل فى مستواها ما اشتهرت به بيزنطة من سياسة ناضجة ، هو الذى منعه من جلب قواته جميعاً لمهاجمة بنڤنتو والضغط عليها — التى احتفظت باستقلالها طوال حكمه — ولو أنه فعل ذلك لتمت تسوية مسألة جنوب إيطاليا ، التى أثبتت الأيام للأجيال التالية أنها أعوص مشكلة فى شبه الجزيرة الإيطالية . وغير خاف أن الوضع الجديد بما انطوى عليه من الافتقار إلى ما كان لدى الرومان من أساليب إدارية وما اقترن بها من فرق الجيش والنزلاء المستعمرين والجهاز الإدارى البيروقراطى المتشابك والمجرد من كل صفة شخصية ، جعل تمزق الإمبراطورية أمراً لا مفر منه متى زالت يد حاكمها القوية ، وقد تجلت نتائج ذلك واضحة فى إيطاليا حيث بدأت النزعات

الإقطاعية تبدو للعيان فعلا بظل الحكم اللومبارديّ ، إذ ظهرت تلك النتائج فى زيادة قوة السلطات المحلية فى شئون القضاة وفرض الضرائب على حساب السلطة المركزية . وحتى الأساقفة الذين كانوا يعملون مبعوثين ملكيين ، أخذوا يدعون أن هذه الحقوق امتيازات وراثية ترتبط بمناصبهم ، على حين أن الكونتات لم يعودوا موظفين من قبل الإمبراطور يمكن عزلهم بإرادته ، بل أصبحوا أتباعاً إقطاعيين ، يحوزون ممتلكاتهم على أنها إقطاعات (Beficicia) ، وليس بوصفها كسباً طارئاً مرتبطاً بالمنصب . وقد أصبح النبلاء الفرنجة والباڤاريون المستقرون بإيطاليا أقطاباً محليين من أعيان ملاك الأراضى ، وسطع نجم ثلاث عائلات عظيمة عالياً بمناطق فريولى وتوسكانى واسپوليتو[1] . على أن عوامل تمزيق وانفصال . كانت تعمل عملها فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، فزادت كل من أكيتانيا وباڤاريا من استقلالها ، كما أن الانقسامات القبلية التى كان يتزعمها بألمانيا الأدواق ، قدر لها أن تكون من أهم العوائق التى اعتاقت نهضة المثل العليا الإمبراطورية التى حدثت بعد ذلك فى عهد أوتو .

ولا شك أن الاتجاه الجرمانى فى فكر شرلمان السياسى يتضح تماماً من الترتيبات التى وضعها لوراثة العرش . فالتقسيم الصادر فى (٨٠٦) لا يستشف فيه أى أثر لفكرة استمرار الإمبراطورية بعد وفاته — إذ قسمت الدولة بين أبنائه الثلاثة على نحو ما فعله كلوڤيس[2] وخلفاؤه وقد مات قبله اثنان من

(١) إن هذه المناطق الثلاث يمكن اعتبارها مناطق حدود يهددها على التعاقب الصقالبة وقراصنة العرب وغارات بنفنتو . وعندما مات المارجريف (حاكم الثغر) إيرهارد المعروف « بدرع إيطاليا » ، وهو من أصل سوابى خلفه فى عرش إيطاليا قريولى ابنه ثم حفيده . وسيطر كونتات لوكا الباڤاريون على جزيرة قورسيقة ، وكان لهم سلطان على لونى وپستويا وفولتيرا وفلورنسا ، وقد قسم شرلمان اسپوليتو إلى ولايات ، ولكنها استردت استقلالها فى زمن أسرة لامبرتينى الفرنجية النبيلة .

(٢) انظر ص ٣٠٧ بعنوان الفرنجة (الفصل الثانى عشر) .

أبنائه ، وهكذا كانت الصدفة وحدها هى العامل الذى جعل جميع فتوح الفرنجة تظل تحت سيد واحد عند وفاة شرلمان فى (٨١٤) ، وقد منح الوالد قبل وفاته بسنة واحدة اللقب الإمبراطورى لابنه لويس الملقب بالورع ؛ ولكن كان من أوائل أعمال هذا الأخير إعادة توزيع الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة. أجل إن الابن الأكبر صار فعلا شريكا لأبيه فى سلطانه ووريثاً له ، وإن أخويه جعلا تابعين يخضعان له . ولكن هذين الأخوين كانا يسيطران بالفعل على ما فى مملكتيهما من موارد عسكرية ، ولم يتوانيا فى استخدامها ، ومن ثم زخرت المدة الباقية من حكم لويس بما ثار بينهم من منازعات اقترنت بالتمرد ، وبما ترتب على ذلك من إعادة تقسيم الأراضى .

وثمة مرحلة أخرى فى تفكك هذه الإمبراطورية ، آذنت بها معاهدة ڤردان (٨٤٣) ، وبمقتضاها اتفق أحفاد شرلمان بعد صراع عنيف على إنشاء ثلاث ممالك ، تتألف من ثلاث شرائح مستطيلة من الأرض تمتد من الشمال إلى الجنوب . فالشقة الشرقية تحتوى على جميع ممتلكات الفرنجة الواقعة شرق الراين ، والشقة الوسطى وهى طويلة وضيقة ، كانت تمتد من الأراضى المنخفضة مارة بأوستراسيا وبرجنديا وپروڤانس ، حتى شمال إيطاليا ووسطها . أما الشقة الغربية فتألفت من بقية فرنسا فضلا عن منطقة الأطراف الأسپانية . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد أن هذا التقسيم صناعى محض ، ولم تلبث هذه الحقيقة حتى تجلت حين تمزقت المملكة الوسطى عند وفاة ملكها .

ولم ينته القرن التاسع حتى استحالت إمبراطورية شرلمان إلى خمس دول منفصلة متعادية : وهى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبرجنديا العليا وبرجنديا السفلى .

الفصل الخامس عشر

أوربا فى مرحلة انتقال
حركات الأقوام

ربما أمكننا الآن عرض صورة للتغيرات التى تمخضت عنها أربعة قرون من الظلام والفوضى . ولو أننا نظرنا إليها من عَلٍ ، كمن ينظر من طائرة وهمية تحلق فى سرعة على مسرحى الزمان والفضاء ، لبدت كتلة الأراضى الأوراسيوية (الأوربية الأسيوية) كأنما تمر فى دور عنيف من أدوار الحركات المستمرة التى يقوم بها السكان ، تلك الأدوار التى تكون الطبقة السفلى التى يرتكز عليها تاريخ العالم [1] . وقد كانت الحاجات الأولية ، تدفع السكان إلى الانثيال غدوا ورواحا فى موجات فجائية للغزو ، أو فى انسيابات بطيئة للتوغل ، لايضبطها ويتحكم فيها شأن مياه الفيضان ـ سوى قوى لاشعورية وعوائق جغرافية ، أو ما كان للبقاع المختلفة من قدرات متفاوتة على كفالة حياة البشر . وكلما اقترب المنظر ، تكشفت أمامنا جهود الإنسان فى ابتكار الحواجز المصطنعة . ففى الطرف الأقصى من الدنيا ، يقف سور الصين العظيم رمزاً لإمبراطورية مستقرة ، وشاهدا على نصر باهر أحرزه الإنسان فى صراعه الأبدى الدائر بين أرض السهوب والأرض التى يشقها المحراث . وفى الطرف الأقصى الآخر من الدنيا ، تقوم الحدود الرومانية ، التى تناخمها كالجناح حدود الفرس الساسانيين ، وتعترض حركات القبائل الجرمانية المتجهة غرباً . وتتبسط بين الطرفين السهولة المترامية بوسط آسيا ، التى هى مجال التكاثر

(١) انظر . أ . ولـ . كوليشوف Kriegs-und Wanderzuge ص ١ ـ ٤٦ (برلين ١٩٣٢)

للشعوب البدوية (المترحلة) التى تنطلق من الصحراء إلى الأراضى الخصبة التى تناخمها ، حاملة إليها فى العادة الدمار والخراب ، ومزودة لهـا فى بعض الأحوال بالقوة والحيوية الجدية . وكلما هبت عاصفة على آسيا كان فيها نذير الخطر على جميع الحضارات القديمة . فإذا اخترق المغول والمانشوسور الصين العظيم ، سقطت عن عروشها أسرات الصين العريقة المالكة . وإذا تدفق الهون والآفار عن طريق السهوب الواقعة جنوبى الروسيا ، ترتب على ضغطهم من الضربات المتتالية ، ما يدفع أمامهم الجموع الجرمانية ، إلى القضاء نهائياً على ما كان لروما من سلطان فى الغرب[1] ، كما أدى ذلك الضغط نفسه بعد ذلك بقرنين ، إلى القذف بجموع الصقالبة بحكم قوة الطرد المركزى على شعوب وسط القارة . ثم تأتى فى عهد قريب من ذاك ، موجة الغزو العربى فتغمر بلاد الشام ومصر وتفيض حتى تغطى شمال إفريقية وأسپانيا ، وتتقدم فى الحين نفسه شمالا بشرق إلى ما وراء فارس ، حتى تلتقى بطليعة الجموع التركية ، التى كانت تنتظر الإشارة لتقوم بالدور الأخير فى آخر صاعقة هبطت من آسيا على مسرح أوربا .

التجارة والصناعة

فإذا زدنا بطائرتنا الوهمية دنوًّا من الأرض لحظنا أن شبكة الطرق الرومانية لاتزال تغطى وجه المناطق الريفية ، ولـكنها لم تعد فى عام ٨٠٠ للميلاد تزخر بحركات الموظفين ولا بما كان للتجار من نشاط تجارى بعيد المدى ، ولا تغص بالفنادق ودور البريد المشيدة بالأحجار . وهى الأشياء التى قال عنها

(١) ظلت حدود روما على الراين تصد هجرة الجرمان مدة أربعة قرون ، وبذا أصبحت منطقة ضغط للشعوب المتنقلة غرباً . وقد خفف من شدة هذا الضغط تخفيفاً جزئياً مرور كثير من الجرمان بسلام ، إما فرادى وإما فى قبائل ، ودخولهم إلى الإمبراطورية إما بهجرة قبائل جرمانية شرقية كبرى من مناطق البلطيق إلى حوض الدنيبر والبحر الأسود . على أن هاته القبائل كانت أول من أحس بضغط الهون الذى دفعهم أمامهم حتى عبروا حدود الدانوب .

سائح صينى مر فى القرن الأول إنها من المعالم المميزة للإمبراطورية الرومانية[١]. على أن التجارة لم تتوقف بأية حال . إذ من الواضح أن شطراً كبيراً من البنيان الاقتصادى الذى كان موجوداً فى العهود الإمبراطورية ، ظل قائماً بمناطق ضخمة من فرنسا وإيطاليا . وحتى المدينة نفسها — كما تدل على ذلك كثير من الأمثلة — ظلت محتفظة بأهميتها القديمة كمركز محلى للتجارة . فإن السفن تسير مصعِّدة فى نهر بو والراين ، كما أن المعديات والكبارى التى وجدت منذ العهد الرومانى بروما وإيطاليا وغالة ظلت تدفع الجزية للأرنجة واللومبارد ، وإن لم يكن من الضرورى أن يدل ذلك على شىء يتجاوز التجارة المحلية . وعلى الرغم من أن فى الإمكان إيراد أمثلة لا حصر لها عن النشاط التجارى ، فالواقع أن هناك بوناً شاسعاً فى الأحوال الاقتصادية بين العصور القديمة ومستهل العصور الوسطى ، ولذا فإن أبحاث الأستاذ دوبش (Dopsch) وغيره من العلماء لم تزد على أن حددت الفكرة ببعض الأوصاف دون أن تقضى عليها . إذ إن الذى كان يحدث فى ظل السلم الرومانى فى أثناء القرنين الميلاديين الأول والثانى أن جميع أنواع الإنتاج الكبير الخاص بالأقاليم كانت تتبادل بوفرة تامة بواسطة التجارة المحمولة براً وبحراً من بريطانيا إلى سوريا ، وهى التجارة التى كانت تزود السكان أو الجيوش بضروريات الحياة العادية مثل القمح والخمور والزيت والمعادن والخشب والملابس والفخار . فالمزارع السرىّ من أبناء بوسكوريالى الذى كان يعيش فى تلك الأيام على التلال المطلة على خليج نابولى بما اشتهر به من التخصص فى إنتاج النبيذ على نطاق واسع من أجل التصدير ، تخصصاً أدى به إلى إهمال كل ما عدا النبيذ من لوازم البيت ، وبما كان لديه من صنوف الجصيات (الفريسكو) والبرونز والأثاث المطعم الحديث الطراز وصحاف الفضة الفاخرة ؛ بل حتى ما لديه من القراميد والفخار وجواربه وما يستخدمه

(١) انظر ف . هيرث China of thc Roman Orient ص ٣٨ (ميونخ ١٨٨٥)

من مناجل تقليم الشجر وما يرتديه من الثياب ويتناوله من صنوف الأطعمة ، وكل هذه أشياء مجلوبة من المدينة أو من وراء البحار — إن ذلك المزارع السرىّ إنما هو عضو رئيسى فى نظام تجارى يشمل العالم كله ويعتمد بعضه على بعض : — فهو وحدة طرازية تمثل الحضارة الرومانية[١] . ولا مراء أن الحضارة كانت ترقّ وتضمحل خارج عالم البحر المتوسط حتى تتحول إلى مجرد طلاء سطحى ، ومع ذلك فإن الفخار الذى انتشر بكل مكان والأوانى المعدنية المصنوعة بالقارة والمكتشفة بمواقع رومانية بريطانية لتشهد بأهميتها فى الحياة اليومية حتى فى الجزائر البريطانية نفسها .

على أن الموقف فى حوالى ٨٠٠ للميلاد يختلف عن ذلك اختلافا بليغاً . فلو أغلفنا مالا بد منه من اختلافات ، لأمكننا أن نطلق بحق على النظام السائد بأوربا الغربية فى ذلك الزمن اسم نظام الاقتصاد المغلق — أو الاكتفاء الذاتى (Geschlossene Hauswirtschaft) وهو نظام يتكفل فيه بحاجات الحياة عمل مجتمعات ذات اكتفاء ذاتى ، «وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوى فى الإنتاج[٢]» أما التجارة التى تنقل إلى مسافات بعيدة فهى على الجملة مقصورة على سلع الترف اللازمة للبلاط والكنيسة — كالتوابل والجواهر والعاج والبخور والمصنوعات الفنية . بل إن فرنسا نفسها ، وهى القطر الذى تهيأت فيه أطيب الظروف الموائمة لإعادة بناء المجتمع ، لم يكن ما فيها من مزارع ضخمة جيدة التنظيم وتابعة للبيت المالك ولاضياع الأديرة القوية (مثل دير سان جرمين دى بريه) مما يمكن تسميته باسم المصانع بأية حال ، كما توهم البعض أحياناً ،

(١) انظر تينى فرانك فى (An Economic Hist. of Rome) (ط ٢ لندن ١٩٢٧) ف ١٤ وخاصة ص ٢٦٦ .

(٢) انظر إ ، كولينبرغ (Allgemeine Wirtschaftsgeschichte) ص ٢٩٩ ، ٣ (برلين ١٩٢٨ — ١٩٢٩) .

ولا هى كانت مصانع تنتج للأسواق الخارجية بالجملة كميات ضخمة من السلع الزراعية والصناعية ، وإنما هى مجرد مزارع بالغة الضخامة ، تزود البيت الملكى والدار الكنسية بما تحتاج إليه من الضروريات ، وذلك مثلما كانت الأوقاف الإيطالية تقدم تلك الضروريات لكنيسة روما فى عهد جريجورى الكبير[١] . وغنى عن البيان أن هذا النظام المعروف باسم « الآفاق المحلية » إنما يرجع بصورة مباشرة إلى انهيار الحكومة الرومانية والمواصلات والتجارة . ويبدو أنه لا يصح تحديد نقطة التحول على أنها القرن الخامس ، بل بالأحرى على أنها سنوات الفوضى والغزو الخمسين فيما بين (٢٣٥ — ٢٨٥) ، وهى السنوات التى دمرت بالفعل ما كان للإمبراطورية الرومانية من نسيج اقتصادى محكم . وقد أعاد دقلديانوس وقسطنطين للنظام السياسى سيرته الأولى. إذ ثبتا العملة وحددا مستوى أسعار السلع ، وأحكما ربط الصناعة بعجلة الجيش والإدارة المدنية — ولكنهما لم يتمكنا من تعويض ما كان للنشاط التجارى من خيوط دقيقة ، كما أن مهلة القرنين الهادئين التى أتاحتها جهودهما لبلاد الغرب لم تشهد أى انتعاش فى التجارة بين الأقاليم ، بل شهدت ارتداداً إلى الوضع البدائى القائم على الاكتفاء الذاتى المنعزل . وتجلى ذلك بوجه خاص فى بلاد مثل بريطانيا وشمال فرنسا اللتين كانت الأنظمة الكلتية قائمة بهما ، وهى أنظمة تناقض ما هو معروف عن البحر المتوسط من مراكز تتركز بها المدن[٢] .

ونتيجة لهذا فإن التجارة والصناعة فى الغرب ، لم يتبد فيهما انقطاع ظاهر

---

(١) انظر ما قبله ص ١٣٢ من هذا الكتاب . وانظر كذلك Greg. Epp. بمواضع متفرقة وأيضاً إسبيرنج فى : (The Patrimony of the Roman Church in the time of Gregory the Great) كمبريدج ١٩١٨.

(٢) انظر ب فينو جرادوف فى (The Growth of the Manor) ص ٦٦ (لندن ١٩٠٥) .

عند الانتقال من العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إلى أوائل العصور الوسطى. وقد قضى قراصنة الوندال على الملاحة فى البحر المتوسط أو على الأقل على معظم ما تبقى منها حتى القرن الخامس ، ولم يكن إحياء النشاط التجارى زمن الكارو لنجيين أمراً ممكناً بعد ظهور البحرية الإسلامية[١] . وذلك على حين أن الطريق التجارى البرى إلى الشرق قد أوصده كذلك حشود الغزاة الزاحفين صوب الغرب ، ثم احتلال الهون والآفار لأرض المجر ، فضلا عن هجرة الصقالبة . ومع ذلك فمن المحقق أن أنواعاً معينة من المنتجات احتفظت بأسواقها أو حصلت على أسواق جديدة ، ومنها أسلحة طليطلة وصناعات قرطبة الجلدية ومنسوجات فريزيا . ومن المدن الشمالية التى تشير إليها السجلات بوصفها مراكز تجارية : إيتابل وأوترخت ولندن وسيليسڤيج وبركا بالسويد . وعقدت الأسواق السنوية — كالتى قامت فى تروى (Troy) وسان دنيه — فاجتذبت إليها التجار الجوالين من كل البلاد ، وأصدر الملوك التشريعات المنظمة للتجارة ، وصار بالمدن الكبيرة عادة أحياء خاصة بالتجار . وهناك أسواق الراين العظيمة القائمة على التخوم منذ العهد الرومانى[٢] ، وهى التى كان يطاولها صف المحطات التجارية التى أذن باقامتها شرلمان على الحدود الصقلبية . على أن بعض الطرق بالغة الطول ، كالطريق المائى الذى يربط بين بحر البلطيق والبحر الأسود ، تتبدى فيها دلائل تدل على تزايد النشاط التجارى إبان القرن الثامن ، على حين أن المدن الفرنجية لم تكن تجهل بأية حال وجوه من يترددون عليها من العرب واليهود والسوريين ، بما يحملون

(١) انتقد ن . هـ . باينز فى (J. of Roman Studies) ع١٩ (١٩٢٩) ص ص ٢٣٠ ع ع رأى بيرن القائل بأن التجارة المنتظمة الممتدة من أقصى البحر المتوسط إلى أقصاه ظلت موجودة حتى القرن الثامن . وعن مراجع أخرى لهذه المسألة انظر كتاب (Byzantion) ج ٧ (١٩٣٢) ص ص ٤٩٥ — ٥٠٩ ، وانظر أيضاً إ . پانزلت فى : (Die frankische Kultur und der Islam) (فيينا ١٩٣٢) .

(٢) انظر (Tac. Germ. C. 4I & Hist. iv. 64) .

إليها من النفائس والتحف الشرقية . ومع ذلك ، فإن من الحقائق الثابتة أن الفترة المبكرة من العصور الوسطى لم تشهد من النشاط التجارى المنتظم فى الغرب ما يمكن أن يقال فيه إنه لا غنى عنه للإبقاء على المجتمع — وكانت الأحوال فى الإمبراطورية البيزنطية مغايرة لذلك تماماً ، وذلك لأن البنيان الاقتصادى الرومانى ظل هنا سليما محافظاً على وحدته وتماسكه بكل ما حوى من نقد وائتمان (Credit) وأسواق وتشريعات تجارية ، على حين أن العلاقات التجارية البحرية مع الشرق الأقصى التى قطعت منذ القرن الثانى قد عادت إلى مجاريها تقريباً .

الزراعة فى الغرب

على أن للزراعة صورة مخالفة لذلك قليلا وإن لم يترتب على غزوات البرابرة أى انقطاع حقيقى فى هذا المجال أيضاً ؛ ذلك بأن مطالع العصور الوسطى فى غرب أوربا إنما هى استمرار للتقدم المضطرد الذى بدأ فى عهد قيصر ، والذى انتشرت فيه ـ متفرعة من دائرة الإمبراطورية ـ الطرق البارعة فى فلاحة الأرض منتقلة إلى خارج الإمبراطورية فإلى جوف القارة الأوربية . ومن إقليم الراين وشمال شرق فرنسا اجتازت آلات الزراعة وأساليبها الفنية الرومانية مناطق الحدود إلى ألمانيا[1] ، حتى إذا استقرت قبائل البرابرة ، زالت من الوجود حياة الرعى والقنص ، وحلت محلها المهن والأعمال الزراعية الثابتة ، التى أخذت تنتشر رويداً رويداً فوق شطر متزايد الرقعة من أوربا . ومن وراء هذه المنطقة كان هناك عالم يستره الظلام حافل بالمستنقعات والغابات والسهوب وزاخر بالأقوام البدوية والشعوب البدائية التى تعيش على التقاط

(١) وبفضل الرومان أيضاً عرف الألمان البساتين والحدائق ، كما يتجلى ذلك من أسماء الفواكه والأزهار والخضر المشتقة من اللاتينية . وواصلت الأديرة العظيمة بث هذه المعرفة .

الثمار . لقد كانت حدود هذا العالم تتراجع على الدوام ، غير أن مناطق كبيرة منها بقيت على حالها من التأخر ، منها أصقاع مترامية من الغابات العذراء بفرنسا وألمانيا ، ومنها شعوب رعاة تطوف فى أرجاء مرتفعات البلقان . على أن هناك تعديلات وتغييرات أخرى دخلت إلى خريطة أوربا الزراعية بتأثير خصائص التربة والمناخ وتقاليد القبائل والعرف المحلى . وبذا يمكن التمييز بسهولة بين طرائق الألمان الشماليين والألمان الجنوبيين ، على حين أنه حدث فى إنجلترة ، أن سلاح المحراث السكسونى الثقيل ، الذى كان يقلب التربة الطينية العميقة فى الحقول المستطيلة الضيقة غير المسورة التى تحيط بمستوطنات الغزاة ، قد قضى تماماً على الزراعة الرومانية الكلتية بكل ما حوت من حقول صغيرة مربعة تقع فى تربة طباشيرية أو رملية حصبائية . وبفضل هذا المحراث نفسه ، ابتدأ أول التحولات الثلاثة التى مرت بريف بلادنا[1] .

ولكن خط الانفصال الرئيسى ببلاد الغرب لا يزال إلى اليوم قائماً وواضحاً بين الزراعة الاستنفادية الشديدة الاستغلال للرقاع الضيقة بإقليم البحر المتوسط التى تتمثل فيما يملكه الأفراد من قطع يزرعونها قمحاً وكروماً وزيتوناً ، والتى اشتهرت بالخطوط القصيرة الضحلة والمحاريث الخفيفة وبين الزراعة المترامية الرقعة بالمناطق الشمالية ، حيث يتحكم المناخ القاسى وقلة عدد السكان والمناطق الضخمة من الغابات أو المستنقعات ، وتنتج نظاما للزراعة يلعب فيها دورا كبيرا بل دورا سائدا متسلطا ، ويكون عمل الإنسان نادرا قليل المهارة ، ويشق المحراث الثقيل بثيرانه الثمانية شقوقاً مديدة فى الحقول المستطيلة الشقة .

---

(١) لاشك أن السياجات التى أقيمت فى أثناء الفترة الأخيرة فى العصور الوسطى والتى بلغت ذروتها فى أثناء القرن الثامن عشر ، هى السبب المباشر فى التحول الثانى ، كما تعد الثورة الصناعية التى أتمها فى أيامنا هذه استخدام الوسائل الميكانيكية فى الزراعة مسئولة عن التحول الثالث .

والواقع أنه ليست لهذه الأحوال المتناقضة من أهميـــة إلا من الناحية السيكولوجية فقط . فإن نظام الزراعة المحدد المعالم فى البحر المتوسط، الذى عمّ إيطاليا وجنوب غالة وأسپانيا وشمال إفريقية زمن حكم الرومان ، بما اتسم به من الفردية والاكتفاء الذاتى والملـكية المطلقة للأرض ، كان خير معوان لأهداف نظام الضرائب وتحديد الوضع الاجتماعى للأفراد ، على الرغم من أن عبارات القانون الرومانى الطنانة ، قد أخفت الحوافى الخشنة لـكثير من صنوف الشذوذ . ومع ذلك ، فإن الأحوال الطبيعية فى الشمال تمخضت عن عقلية تعاونية ، وعن عالم فـكرى ، حقوق الملـكية فيه غامضة ومعرضة لصياغة مبهة عسيرة الفهم . وكان للدورة الزراعية واختلاط الأنصبة فى الحقول والشيوع فى استخدام الغابات والمياه والمشاركة فى منتجعات الرعى ، وعادات الحياة التى تولدت من أمثال هذه التقاليد ، — كل ذلك كان له الفضل فى خلق اقتصاد ريفى أكثر مرونة وعدم انتظام من اقتصاد منطقة البحر المتوسط . وقد رُسخت عناصره المميزة إبان العهود الـكلتية لغالة وبريطانيا واستمرت إلى ما بعد الفتح الرومانى (على الرغم من أن نظام الضياع (الڤيلات) المركزية سار أشواطاً فى سبيل التقدم بكل من القطرين ، إذ وجد فيها تربة صالحة لنموه) . وتتضح هذه العناصر فى كل مرحلة من مراحل الزراعة الجرمانية ابتداءً من الاحتلال المؤقت فى أثناء عهد الهجرات حتى التطورات الـكاملة النمو بإنجلترة فى عهد الأنجلوسكسون . وقد تركت تلك العناصر أثرها فى حياة القرية وفى نظم الحـكم الذاتى المحلية الشائعة فى العصور الوسطى ، وهى تشكل عنصراً جوهرياً فى نمو الضيعة (Manor) (أى دائرة حكم النبيل) ، إذ إنها عطلت بل منعت تماماً فى كثير من الأحيان ذلك التماثل التام الذى ربما فرضته — لولاها — المؤثرات الإقطاعية .

الطبقات الاجتماعية

وربما كان هناك شيء من زائف التبسيط فى مد ظلال هذا التباين على أوائل العصور الوسطى وعرض المسألة على اعتبار أنها اختفاء ما للألمان من حرية شخصية ونظم ديموقراطية فى غمرة ما للرومان من المفاهيم الفقهية التى أقامتها قرون طويلة تعرضت فيها الطبقات الدنيا لظلم منظم ، والتى غذتها الفكرة السائدة فى البحر المتوسط عن تفاهة حياة الإنسان وزهادة العمل البشرى . أجل إن هذه الفترة تتميز بما سادها بصفة عامة من : « إهدار لكرامة طبقة العامة وتحطيم نكيانها »[1] . فإن الفلاح الصغير (Bonde) لم يظل مستقلا أى قادراً على الاحتفاظ بحقوقه إلا فى أقاصى الشمال فى بلاد النرويج والسويد . ولكنه فى الدانيمركة وإنجلترة لايصبح فلاحا(Husbandman)أجيراً فحسب ، بل عبداً رقيقاً (Bondman) . وهنا تتحول اللفظة الفرنجية ڤيلانوس (Villanus) أى العامل بالضيعة إلى لفظة (Villein) السائدة فى العصور الوسطى ، والتى يقصد بها « رجل وضيع الأصل رقيق الحال » . وتختفى الطبقات الوسطى من المجتمع فى مملكتى كنت ووسكس ، مخلفة وراءها ثغرة هائلة بين طبقتى النبلاء والدهماء . وحدثت هذه العملية أيضاً بمناطق أخرى . ومع ذلك فإن التقاء الاتجاهات عند الجانبين الرومانى والجرمانى ، مهد الطريق لهذا « التحول الأرستقراطى للجماعة البشرية » . وقد أفضى سقوط الحكم الرومانى إلى انتقال السلطة الحقيقية — على الرغم من أنها لم تكن بأسرها دستورية ـ إلى أيدى الأعيان المحليين الذين أصبحوا سادة صغاراً على فلاحيهم يتولون النظر فى شئون مستأجريهم القضائية ويقررون عليهم الضرائب .

---

(١) انظر (Cambridge Medieval History) مج ٢ ص ٦٥٢ (كمبريدج ١٩١٣)

ومع ذلك فإن ما حل بالإمبراطورية من هبوط اقتصادى ، وإن أدى إلى تحول صغار الملاك إلى أتباع لمالك الأرض ، وقيد حرية حركتهم ، قد جعلهم شيئاً ضرورياً لا يستغنى عنه نظراً لندرة اليد العاملة ، وبذلك أتاح لهم ميزة القدرة على المساومة . وفى الحين نفسه أدى تحسن الوضع الاجتماعى للرقيق ، الذى يرجع إلى التشريعات ذات النزعة الإنسانية أولا ، ثم ذات الصبغة المسيحية فيما بعد ، — إلى التقريب بين وضع الفلاح الصغير (Colonus) ومكانته ، وبذلك أسهم فى تكوين طبقة كبيرة شبه حرة ، هى طبقة العمال (Laborantes) التى ألفت مع رجال الكنيسة (Orantes) والنبلاء (Bellantes) العناصر التى يتركب منها المجتمع فى غرب أوربا[1] .

وإذا حولنا أبصارنا إلى الجانب التيوتونى من الصورة لم نجده يمثل بأية حال المثل الأعلى للحرية والديمقراطية البدائية ، كما تصور ذلك وأعلنه أحياناً بعض المتحمسة من مؤرخى القرن التاسع . ويشير الأستاذ ڤينوجرادوف أنه : «لاشك أن الرجل القبلى المسلح الحر كان يستمتع بقسط لا بأس به من الحقوق، وإن لم تكن هناك أدنى علاقة بين الاعتراف بوضعه الاجتماعى وبين النظريات الديمقراطية العصرية» . وقد كان المحاربون فى أى مجتمع بدائى كبلاد الإغريق أو روما فى عهودها الأولى ذخراً ثميناً تعتز به الدولة ، ومن ثم لم يكن بد من استرضائهم ، حتى لقد كان لهم فى بعض الأحيان نصيب فى تدبير السياسة . ومع ذلك لم يكن بين الجرمان حتى فى زمن تاكيتوس نفسه مساواة فى المكانة، وعندما استقرت نهائياً القبائل المهاجرة ، زاد الإقطاع ومنح الأراضى المقطعين فى مدى التفاوت بين الطبقات . وكلما ازدادت سلطة الملك، حل مكان طبقة النبلاء الوراثية طبقة نبيلة أخرى قامت على أساس ما تؤديه من الخدمات . على أن هذه الطبقة الجديدة من النبلاء لم تكن تلبث حتى تصبح وراثية ، وإنا لنجد منذ

(١) انظر تذييل ب .

أبكر أيام الاستقرار وإلى جوار القرى الحرة ، أن رقعة أملاك النبلاء ورؤساء الأديرة يطرد نموها . فإذا حلت الفوضى التى وقعت فى عصر الميروفنچيين أورثت أوربا من النتائج ما أورثه لها انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وعندئذ أنزل الرجال الأحرار أنفسهم منزلة الأتباع ليحصلوا على حماية أحد الملوك الأقوياء ، على حين أن السلطة المركزية ظلت على الدوام تجرى المساومات والمقايضات على سلطاتها أو التخلى عنها . ومع ذلك فإن العملية التى يعتبر النظام الإقطاعى ذروتها ، سارت ببطء . ففى أيام شرلمان كان اتساع ما فى حوزة صغار الملاك والمجتمعات الحرة من الأراضى يفوق فى مساحته مساحة الضياع الكبيرة ، بل الواقع أن مناطق الأملاك الكبيرة يتجلى فيها بوضوح وجود سلطة الضياع الريفية (Menorial) جنباً إلى جنب مع الوحدات والنظم الشعبية المعروفة منذ القدم .

ومن الطبيعى أنه لا يجوز أن نتطلع فى قرون الفوضى والاضطراب إلى النظريات السياسية المكتملة التطور التى تتولد دائماً من الظروف المعاصرة، وذلك لأن عصور الفوضى تكون فيها المحافظة الفعلية على الأمر الواقع (De facto) وعلى السلطة أهم كثيراً مما للشخص الذى يمارسها من دعاوى شرعية (Dejure) ، ومع ذلك ففى الإمكان أن نلحظ فى أفكار الناس عن الدولة تغيرين أساسيين، تولداً عن سقوط الدولة الرومانية فى أوربا الغربية ، وقدر لهما أن يؤثرا فى العصر الوسيط بأكمله . وأول هذين التغيرين هو العلاقة الجديدة المتغيرة بين السلطتين العلمانية والإكليروسية (الكنسية)، تلك العلاقة التى لم يكتمل وضوحها إلا بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنچية . أما التغير الثانى فهو انتشار العادات الفكرية المستمدة من الظروف القبلية[1] لدى البرابرة . فإن السكان المختلطين أصولا ، المتفاوتين فى درجة الثقافة، النازلين بالممالك الرومانية الجرمانية أثاروا مشاكل عسيرة فى الإدارة ، لم يتهيأ حلها إلا باتخاذ المبدأ العجيب

(١) انظر س.هـ . فى (The Growth of Political Thought in Europe) ص ص ١٧١ ع ع . (لندن ١٩٣٢) .

المعروف « بشخصية القانون »[١] . إذ كان كل إنسان يعيش وفق قانون قومه ، سواء كان رومانيا أوبرجنديا أو من القوط الغربيين أو من الباڤاريين أو من الفرنجة الساليين أو الريپواريين . يقول أجوبارد الليونى مدافعاً عن ضرورة وحدة النظام القانونى فى إمبراطورية الفرنجة : « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معاً ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورفيقه[٢] » . ولا مراء أن عملية المزج بين هذه النظم تعد مرآة لما نالته أوربا الغربية من ازدياد فى التطور الثقافى . فإن الشخصية كمبدأ تخلى مكانها فعلا للإقليمية ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أن تؤدى الغرض منها فى ضمان بقاء نواحى العرف القانونية المتضاربة فى أثناء مرحلة انتقال حرجة . والواقع أن الأمر ينتهى بأن يصير « العرف » هو القانون النهائى ، وبهذا الوضع الجديد يتضح لنا انتصار الفكرة الجرمانية القديمة عن القانون القبلى ، الذى اكتسب طابعه منذ الأزمنة السحيقة والتزم به الملك والرعية جميعاً[٣] . ومما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة سيادة القانون هذه ، فكرة الملكية « التى تقوم أساساً على خدمة الأمة »[٤] . وهذا المبدأ الأول مبدأ السيادة المسئولة ، الذى يتعارض ويتنازع على نوع الحكم فى أوربا مستقبلا مع نظيره الأسيوى ، ، وهو المبدأ الثانى الذى يجعل الملك يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، وبوصفه نائباً عن الله فى الأرض من الناحية الروحيـــة الكهنوتية ، هذا المبدأ الأول إنما هو بالضرورة مبدأ جرمانى ، على الرغم من أنه ليس جديدا على الغرب بحال . وذلك لأنه متأصل أيضاً فى روما الجمهورية ذاتها[٥] ، التى كانت

(١) انظر ماقبله ص ١١٦ بعنوان الممالك الرومانية الجرمانية .

(٢) M. G. H. Legg. iii, 504.

(٣) « Tac. Germ. c. 7. Nec regibus infinita aut Libera potstas »

(٤) ميكيلوين فى الموضع السابق ص ١٧٥ .

(٥) إن إيزيدور الأشبيلى الذى عاش فى القرن السابع يلحظ الترنيمة الرومانية القديمة للأطفال ونصها (Rex eris si recte, facies, sinon facies, noneris) وعن صورة قديمة أكثر لهذه الترنيمة انظر Hor· Ep. i. i. 59 « Atpueri Ludntes « rexeris » aiunt ‘ Sirecte facies ’

تفوض السلطة العليا إلى موظفين منتخبين ، وبقى هذا النظام معمولا به حتى آماد طويلة من عهد الإمبراطورية فى صورة قانون السيادة (Lex de imperio) ومراسم هتاف الجيش والشعب اعترافاً بشرعية الإمبراطور الجديد . ولو أرجعنا البصر إلى العصور البيزنطية المتأخرة ، يوم بدا أن التصورات والأفكار الهللينية والعبرانية عن الملكية قد أحرزت انتصارها النهائى ، لوجدنا الفكرات الرومانية لا تبرح متشبثة بمكانها فى الألقاب الإمبراطورية وما ارتبط بالحاكم من واجبات وفضائل تقليدية . فأما فى الغرب ، فإن آباء الكنيسة كانوا متفرق الكلمة بين ميلهم إلى نظام الحكم الثيوقراطى (الدينى) وفق ما ورد بالعهد القديم ، وبين فكرة شيشرون عن الدولة [١] ، وبذا أصبح من المحتم الاعتراف بالعامل الجرمانى لاستمرار اتحاد السلطة والمسئولية ، الذى مهد السبيل لما أعقب ذلك فى بلاد الغرب من تطورات دستورية .

الحكومة الثيوقراطية

ولعل ما هو أهم من ذلك ، بالنظر إلى التغيرات الهائلة التى أدخلها قسطنطين ، يوم طابق بين مصالح المسيحية والإمبراطورية ووحدتهما ، أنه جعل الكنيسة شريكا له فى الحكم ، وزاد فى قوة المسحة الدينية للسلطة الحكومية . فإن الكنيسة أصبحت منذ تلك اللحظة بفضل ما خوله لها من ولاية وسلطة ، جهازاً من أجهزة الإدارة ، كما أن الفجوات والفراغ الذى تخلف عن الاختفاء التدريجى لسلطة الإمبراطور فى إيطاليا ، كان يسد ثغراتها على الدوام نمو النظام البابوى المطرد . ولم يفت ملوك البرابرة على الرغم من موقفهم

---

(١) انظر ا . ج . ، و . و . كارليل فى History of Medieval Political Theory in the West مج ١ ف ١٨ (لندن ١٩٠٣) .

المستقل أو الحافل بالتهديد نحو البابوية ، أن يستفيدوا من الكنيسة فى خدمة أغراضهم القومية ، وذلك لأن رجالها كانوا المرجع الوحيد الذى يجدون لديه من المعرفة بطرائق الرومان ونظمهم القدر الكافى لمعالجة المشاكل المعقدة فى مجتمع متحضر. على أن نقطة التحول فى هذه العملية لم تتم إلا بذلك التغيير العظيم فى الخطط السياسية الذى يسميه المؤرخون باسم «تغيير القلب» والذى استحدثه بالنسبة « للبرابرة » جريجورى الكبير فى السياسة البابوية . وربما صح عند كل من ليو الأول وأوغسطين وجيروم أن تكون رسالة الكنيسة عالمية من الناحية النظرية ، غير أنها كانت فى الواقع محددة بجدول الإمبراطورية الرومانية[1]. وقد كان الغزاة المغيرون يعتبرون حتى فى نظر سالفيان نفسه الذى اشتهر بالإشادة بما اتصف به الألمان من فضائل ساذجة ، — سوط عذاب من الله ، كما أن ما يرتدونه من ثياب وما ينبعث من أجسادهم من روائح كان كفيلا بأن يجعلهم خارج نطاق المجتمع الإنسانى المتحضر . وقد وضع جريجورى حداً لذلك كله بما قام به من نشاط تبشيرى ودبلوماسى فى أوربا الغربية ، فمهد بذلك السبيل لإمكانات جديدة لم تدر بأحلام الناس ، وكلما زاد النفوذ البابوى فى الممالك الجديدة ، ترتب عليه بالتبعية تسويغ الانفصال عن بيزنطة عقلياً ، وهى المركز الإمبراطورى للعالم . فقد هيمنت فى أسپانيا المجامع الأسقفية على مملكة القوط الغربيين إبان السنوات الأخيرة من وجودها . فأما فى إنجلترة فإن الحكام الإنجليز السكسونيين اعتمدوا فى حكمهم على مشورة مستشاريهم الرومانيين وما يبذلونه لهم من معاونة فى السياسة والتشريع . كما أنه حدث فى فرنسا أن رجال الكنيسة لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الفرنجة — وبفضل تعاونهم تيسر كل

---

(١) انظر إ . كاسبار فى (Geschichthe des Papsttums) مج ١ ص ٥٥٨ (تيوبنجن ١٩٣٠) .

ما تم من الفتوح من عهد كلوفيس إلى عهد شارل مارتل — وأخذ شرلمان نفسه . واصلة التقاليد الميروفنجية ، فاحتفظ للكنيسة بمركزها بوصفها أداة هامة جوهرية للحكم ، وإن كانت خاضعة لسلطان الملك فى كل الأمور . ولم يكن بد من التخلص من مساوئ الكنيسة ، حتى تستطيع القيام بوظيفتها الأساسية فى فرض الصبغة المسيحية على تفكير الرعايا الفرنجة وطباعهم . ومن ثم وضعت بأيدى رجال الكنيسة شئون التعليم والإدارة بل القمع (كما حدث فى سكسونيا) . ولا مراء أن الطابع الدينى (الثيوقراطى) فى نظام شرلمان بلغ من القوة والبروز ما بلغه فى عهد جستنيان وخلفائه . وكان أباطرة القرن التاسع بشرق أوربا وغربها سواء ، يحكمون رعاياهم باعتبارهم مفوضين من قبل الله ، وتمسك الرجل العادى بقواعد الديانة الرسمية وأحكامها ، تمسكا لابد أنه يثير دهشة أى مواطن رومانى ممن عاشوا فى العصر السابق لقسطنطين .

التغير الثقـــافى

ربما جاز وصف طابع التحـول الثقافى الذى تولد فى تلك القرون عن انهيار الحكم الرومانى فى الغرب ، بأنه مجرد « تفتت » وتحلل للقشرة الخارجية للحضارة . وعلى الرغم من أن أجزاء بعينها من تلك القشرة ظلت حية ومتماسكة فى بعض الأماكن أو تكاد ، فإنها لم تعد بأية حال من الأجزاء الأساسية التى يتألف منها الإطار العام . إذ برزت عند ذاك إلى السطح للمرة الثانية تقاليد إقليمية أقدم عهدا طمستها لعدة قرون تلك الخطط النظامية المرسخة الأصول التى ابتدعها الجهاز الإمبراطورى الرومانى وغمر بها تلك التقاليد ولم تلبث أن تجلت نتائج خمائر جديدة ثورية كانت تعمل فى الخفاء مدة طويلة .

فمن الناحية الاقتصادية ، انحلت روابط التجارة العالمية ، وحل محلها

نظام الاكتفاء الذاتى المحلى . ومن الناحية السياسية ، تمزقت الأقاليم الغربية ، وتحولت إلى ممالك جرمانية رومانية . واتحدت تلك الممالك أمداً قصيراً من الزمان تحت تاج شرلمان ، ثم عادت فتمزقت عدداً من الدويلات المتعادية . وفى مجال التعليم ترتب على اختفاء الإدارة الرومانية ، أن زال الباعث على تعلم البيان . واختفت من الوجود المدارس والجامعات باختفاء ما كان يساندها من نظام سياسى واقتصادى ، على حين أن الطبقات الناعمة بالمتعة والفراغ التى تبادلت من الرسائل الرشيقة الحافلة بالتلميحات والإشارات ما حفظ للأدب مكانته الاجتماعية ، لم يعد لها وجود باعتبارها طبقة المفكرين الأوربيين . ولاشك أن عدداً كبيراً منهم هلك فى أثناء الغزوات أو انحدر إلى مرتبة الفلاحين. كما هاجر إلى بيزنطة عدد كبير من الأسر النبيلة . وانعزلت عائلات أخرى منهم فى دورهم الريفية المنيعة ، فشغلوا أنفسهم بالقنص والطراد أو انضموا إلى حرفة الجندية ، وهى الحرفة الوحيدة المجزية فى مثل ذلك العصر . وكانت الأديرة تفتح أبوابها أمام قلة من هذه العائلات اتخذتها ملاذا ، على أن حياة الأديرة وخدمة الكنيسة لم تكن لتهيئ الفرص لتلقى التعليم العلمانى .

ومن الناحية الفنية ينحط الطراز الرسمى للإمبراطورية الذى ظهر فى أسوأ صوره فى أنواع « الإنتاج الصناعى الكبير » الذى كان يصدر إلى الأقاليم النائية (كأوانى ساموس الفخارية وما أشبهها) بتداعى الأسباب التى دعت إلى إنتاجه وتوزيعه ، كما أن التقاليد المحلية غير الرومانية استمر تأثيرها فى بعض المناطق — كالنماذج الكلتية المرنة والجواهر التيوتونية الضخمة ، والتصاميم الخيالية العجيبة التى ابتدعتها يد الصانع الأسكنديناوى فى الخشب والمعادن . وفى روما ذاتها يتجلى الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمقارنة النقوش البارزة لعهد تراجان (حوالى ١٠١ م) التى كانت تؤلف فى الماضى جزءاً من منصة الخطيب فى الفوروم (السوق) بما يماثلها

فى الموضوع من نقوش بارزة رسمت على قوس قسطنطين (حوالى ٣١٥ م) وفيها تتجلى بوضوح[١] الخصائص الطرازية البيزنطية . والنقش الأول يصور الإمبراطور تراجان وحاشيته بأقصى غاية المهارة فى التمثيل كالمعالجة الدقيقة للثياب ، والبراعة فى تأخير المستويات المتتالية ، وهى الأمور التى ترتبط بالطراز اليونانى الرومانى . وفى النقش الثانى ، يتصدر قسطنطين المشهد ممثلا فى صورة جامدة فى قمة سلم الوظائف ، ويعلو صفوفاً ضئيلة مصغرة ومكتّلة من رجال السناتو والرعايا . ولا شك أن التباين بين الحالين بالغ الوضوح . إذ تتجلى خشونة النهج الفنى وغلظه ، كما يتجلى التركيب الشكلى المبالغ فى «سيمتريته» فضلا عن الافتقار إلى الحاسة التشكيلية والميل إلى سوء معالجة الأشكال باستخدام « التخطيط الكروكى بالأزميل » ، اعتماداً على قيام اللون بملء التفاصيل ، وهو تحول ظاهر من طرائق النحات والنحت إلى طرائق المصور والتصوير . على أن من الخطأ اعتبار هذا الوضع « تداعياً »[٢] ، أو تطوراً أصيلا يقوم على ما للتطور من خطوط فنية بحتة ، ارتبطت بمسائل فنية لا بد من حلها . أما الانحطاط الحقيقى فى الفن القديم فيظهر فى تلك التماثيل التى تماثل فى واقعيتها الصور الفوتوغرافية والتى تمثل صيادى الأسماك المصابين بالروماتيزم والعجائز الناحلات والملاكمين الوحشيين — التى ترضى مطالب الجمال الرومانى فى القرن الثالث[٣] . ومن المؤكد أن فى إمكاننا أن نستنتج وجود الانحطاط فى كل من المهارة والذوق العام ونتعرف عليه من نقوش قسطنطين البارزة ، ولكن التغير يكمن فيما هو أعمق من هذا . ذلك بأنه تغير الروح والنظرة ،

---

(١) انظر هـ . لايتزمان فى « Das Prblemd der Satantike » Sitz. d. Preuss. Akad. d. Wiss)

(٢) انظر ل . فون . سيبل فى (Shätrömische Sculpture) مج ١ ص ص ٤٥ ع ع (فينا ١٩٠١) .

(٣) انظر ا . و . لورنس فى (Classical Sculpture) ص ٣٧٠ (لندن ١٩٢٩)

تغلغل فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وهو يسعى هنا باحثاً عن وسيلة للتعبير عن نفسه ، وذلك بصورة غلب عليها التردد فى البداية ، ولـكنه تطور فيما بعد حتى وصل إلى الظفر الراسخ المحقق المتمثل فى الفنين البيزنطى والرومانسكى. والسمة الغالبة فى هـذا التطور شرقية . وقد تجلى التغير فى الحقل الدينى فى انتشار العبادات والنحل الباطنية (ذات الأسرار الخفية) ، كما يتجلى فى النصر النهائى لأعظم هذه النحل جميعاً ، وهى المسيحية . وفى ميدان الفكر ، يمكن ترسم تغيير جاء فى صورة تطور مصاحب للرمزية الشرقية . فإذا انتقلنا إلى مضمار الفن ، وجدنا النظرة المسيحية والصوفية تحدث تغييراً فى الداخل فى ثمار التقاليد الكلاسيكية ، ويعززها من الخارج المؤثرات المادية للأساليب والتكنيكات الأسيوية[1]. ثم يصبح هذا المؤثر بعد أن تركزت الإمبراطورية فى بيزنطة ، أشد ثباتاً وأعظم قوة ، ويتمخض تفوق العاصمة الثقافى والاقتصادى عن انتشار إنتاجها الفنى فى كل أرجاء أوربا المتبربرة ، حيث صارت نماذج يحتذيها تطور الفن فى العصور الوسطى أو يصحح عليها أوضاعه .

الآداب واللغة

وهناك اتجاهات مماثلة تتمثل فى انبثاق الأشكال والصور الشعبية القديمة وتأثير خمائر جديدة ، وهى تتجلى فيما أحدثته فى الأدب واللغة من التغيير . فإن أناقة وأرستقراطية أوزان الشعر اليونانى بما ترقرق فى مقاطعها المتسقة الـكم والعدد من موسيقى رقيقة ، قد احتفظت لنفسها بسيطرة قلقة على الشعر اللاتينى ، الذى تعمقت جذوره الطبيعية فى إيقاعات الفلاحين القوية عن أرض بيادر الحبوب وعن عجلة المغزل والرقصة الريفية ، والأقوال المأثورة

---

(١) بطبيعة الحال ، ليست الرمزية بأى حال منافية لأشد أنواع الواقعية تصلبا . وهذه حقيقة تتجلى بوجه خاص بمدرسة أنطاكية . وتتجلى آثار الفن السامى فى التمثيل بالصور فى فريسكوهات ديورا (Dura) التى ترجع إلى القرن الثالث الميلادى .

التى ينطق بها الوحى الربى . وما يصدر عن أقدام جند الكتائب من وقع ثقيل . ويتعالى صوت الغناء من جوقة المنشدين الإمبراطوريين ، ولكن جذاذات صغيرة من هذا الشعر الشعبي تستطيع الأذن التقاطها من دون صوتهم المتعالى ، ومن الشذرات ترنيمة للطفولة أو قفشة مفحشة عن جنود قيصر المسرحين أو سطر من الشعر الغرامى كتب على جدار بأحد شوارع پومپياى . وقد تبنت هذا الشعر المشدد النبر والإيقاع فى أثناء القرن الثانى الميلادى جماعة من الأدباء المجددين ، وعن تلك الحركة ازدهر الفن الرائع المسمى باسم التهجد فى عبادة ڤينرس (Pervigilium Veneris) ولا شك أن ما أصاب المعايير الثقافية من الضعف قد شجع على ظهور هذه التطورات . كما أن الروح الجديدة استكشفت وسيلة مناسبة للتعبير الذاتى هى الإيقاعات القوية وما لها من مؤثرات عاطفية عريضة . وكانت أسپانيا وإفريقية تربة صالحة مثمرة لهذا التطور فى الأوزان . ومما له دلالته القوية على تغير الظروف ما كتبه أوغسطين ضد الدوناتيين من أناشيد فجة لكى تؤديها الجماعات المحتشدة بطريقتها الخشنة فى التشطير والتقطيع وجوقاتها الزاعقة ، وذلك فى حين أن تراتيل پرودنتيوس فى المواكب الرسمية رغم تفوقها فى الجمال والروعة ، ليس بوسعها أن تخفى اطِّراد الإيقاع المنتظم للأشعار الشعبية تحت الألحان الواهنة والانسجام الموسيقى المتنقل . وهنا يبرز فى وقت واحد كل من الروىّ والسجع مجتمعين معاً ، وهما من الظواهر المعروفة فعلا فى الشعر الشعبي [1] ، وبذا يستكمل ما للعصور الوسطى من ترانيم أشكاله وصوره .

أما النثر فقد سار فى الاتجاه نفسه ، على الرغم من أن انعدام التشطير الثابت فيه يحول بيننا وبين تتبع مراحله التالية . ومع ذلك فإن نبرة الضغط المشدد وتصغير حجم الفقرات تتجلى فى الخواتيم (Clausulae) ، أو ما يرد من

(١) انظر إ . نوردن فى (Die antike künstprosa) ص١١٨ (ليبزج١٨٩٨)

إيقاع شكلى فى ختام الجمل والفقرات ، التى استخدمها كتاب الحقبة المتأخرة من القرن الرابع الميلادى ، واكتملت فى عهد جريجورى الكبير مرحلة الانتقال من النثر المسجوع إلى النثر الإيقاعى[١] .

أما لغة الحديث نفسها ، فتعرضت لتغير مماثل . وهنا أيضاً كان الأصل فى التغير سيكولوچيا. على أنه لابد من التزام الحيطة فى معالجة أداة كهذه لها مثل تلك المرونة والتعرض للفناء ، غير أن بعض النزعات البارزة تبدو فيها واضحة. على أن الأساس الجوهرى للتفرقة بين اللاتينية العامية واللاتينية الأدبية الراقية ، هو نوع الفكر الذى تعبر عنه . وعلى الرغم من أن اللاتينية العامية لا بد أنها تأثرت بما سلفت الإشارة إليه من التفكير اليونانى ، الذى تطرق إلى لغة المتعلمين كتابة[٢] وحديثاً ، فإن روحها حافظت على مناعتها إزاء كل أثر للعصر اليونانى القديم ، وبذا ظلت ملكا خالصاً للعامة ، ودامت طويلا بعد تفكك الغرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، ولم تلبث بعد ذلك أن تفرعت إلى مختلف لغات الرومانس . على أن اللاتينية المهلّنة (أى المتأثرة باليونانية) لم تستطع أن تعيش ولا أن تموت بعد سقوط دولة الرومان بفضل حفظها محنطة جامدة فى قالب الآداب . فظلت باعتبارها لاتينية متوسطة تعيش حياة غير طبيعية بين أروقة الكنائس والمدارس وفى بطون الأوراق ، وعلى ألسنة الدارسين[٣] وآذانهم . وعلى الرغم من أن الأغانى الجولياردية هبطت بها حتى

---

(١) انظر ا . س . كلارك فى (The Cursus in Medieval of Vulgar Latin) ص ١٣ (أوكسفورد ١٩١٠) .

(٢) وهى اللغة الحضرية (Sermo urbanus) بالمناقضة مع اللغة العامية (Sermo plebius Vulgaris) انظر ف.ف. أبوط فى (Classical Philology) ، ١٩٠٧ ، ص ص ٤٤٤ — ٤٦٠ .

(٣) انظر ك . فوسلر فى (The Spirit of Language in Civilization) ص ص ٥٧ — ٧٥ (لندن ١٩٣٢) .

اقتربت قليلا من الأرض ، فإنها ظلت معلقة بين الأرض والسماء بعيداً عما لحديث الناس الجارى من تيارات لا شك أنها هى القوى المؤثرة فى تطور اللغة.

وفى تلك الأثناء ، كانت لغة العامة ـ بعد أن تخلصت من ضغط الطرائق الأجنبية فى التفكير ـ عرضة لمؤثرين توأمين متلازمين ظهرا فى ذلك الزمن : انتعاش التقاليد المحلية وتأثير البواعث المنبهة الجديدة . والواقع أن ما حدث من تغيرات فى المحصول اللغوى والصرف ، مرآة تعكس ما يقابل ذلك من تغير فى العقلية . وصحب اختفاء ما كان للحياة من اتجاه رواقى أرستقراطى شخصى ، زوال ترتيب الكلمات وضبطها ، فضلا عن الإعراب الذى يتيسر به هذا الترتيب . وحل محلهما الأسلوب غير الشخصى الذى يهدف إلى التواصل بين الناس لا التعبير الذاتى ، ويتمثل ذلك الأسلوب فى المبالغة فى التعبير التى يتسم بها حديث غير المتعلمين ، وفى التغير الذى ألم بمعنى المستقبل الذى لم يعد الناس يتقبلونه بالاستسلام ولا بالعزم المعقود ، ولكنه أضحى موضع المخاوف والآمال الحارة. وأشد ما يتجلى فيه التباين هو الفجوة الواضحة التى تفصل بين الأسلوب الذاتى الرصين الذى يكتب به كبار الكتاب القدامى (الكلاسيكيين) وبين ما يتميز به فى الوقت الحاضر خلفاؤهم من أبناء عصرنا من الفرنسيين والإيطاليين من اختلافات دقيقة رغم اشتراكهم فى التراكيب اللغوية . « ولو قارنا بين صفحة مما سطر ليفى أو تاكيتوس أو فرجيل وبين لغات الرومانس العصرية جميعاً . . . لبدت الثانية كأنما هى كتيب ساذج بالمقارنة إلى لوحة من البرونز [1] » .

التطورات اليونانية

ربما زادتنا تطورات الأدب واللغة عند اليونان قدرة على استجلاء ما سبق إجماله من الاتجاهات . فإن دراسة لغة الحديث وطريقة النطق تعتبر

(٢) انظر ك فوسلر فى الموضع السابق .

دائماً من الأعمال الفنية كما أن إحلال النثر محل الشعر لأغراض معينة لم يزد على أن أتاح المجال للاكتمال الفنى . وقد ظهر فى عصر عظمة أثينا أسلوب نثرى باهر ظل متحكماً فى الكتابة اليونانية ألفا وخمسمائة سنة ، بعد أن نجح فى مقاومة جميع المؤثرات الشرقية التى ابتدأت بحكم خلفاء الإسكندر (Diadochi) ، وعاش طويلا بعد الفتح الرومانى ، وتبناه مع قدر ضئيل نسبياً من التغيير — سلسلة طويلة من مؤلفى بيزنطة[1] فى العصور الوسطى. على أن لغة الحديث لم تبلغ هذه الدرجة من الحصانة إزاء تأثير التطورات السياسية والاقتصادية ، ومن ثم يمكننا هنا اكتشاف تغيرات مماثلة لتلك التى حدثت فى اللاتينية . إذ إن لغة مشتركة تتألف إلى حد كبير من لغة أتيكية محرفة ، طغت على اللهجات المحلية ، وأصبحت أداة للتفاهم بين الناس فى أرجاء الشرق الهللينى قاطبة . وصحب ما أصاب الثقافة الإغريقية من وهن وضعف ، تعرض اللغة لخطر بالغ الشدة ؛ فأخذ التغير يداخل طريقة النطق بالكلمات ورقت حروف العلة المفخمة المعروفة فى عصر بركليس حتى استحالت إلى أصوات حرف « e » ، التى ظهرت فى اليونانية المتأخرة وهى عملية امتد أثرها إلى الحروف الساكنة نفسها ، ولم يلبث التمييز بين المقاطع الطويلة والقصيرة أن اختفى مع دخول نبرة تشديد أجنبية[2] .

إن هذه التغيرات التى ألمت بلغة الكلام استأصلت أسس الشعر والنثر اليونانى القديم اللذين كانا يقومان على الكم العددى وعلى الطبقة الموسيقية . ومنذ تلك اللحظة أخذت الفجوة تتسع بين اللغة الشعبية وبين فنى المتبحرين فى العلم : — قرض الشعر والبيان ، إذ مابرحت الدوائر المحافظة بالجامعة والحياة الرسمية ، تظهر بالغ الاهتمام وتقدر بمزيد الإعجاب قرناً بعد قرن وتشيد بعلم

(١) انظر إ . نوردن فى الموضع السابق ص ص ٣٦٧ ع ع .

(٢) عن تخطيط معجب لهذه التطورات انظر هـ . ليتزمان بالموضع السابق .

العروض وتكييف الصوت المعروفين فى الأيام الخوالى ، وهو تقليد لم ينقطع عنه الناس يوماً واحداً كما حدث فى الغرب . وربما جاز لنا أن نستنتج أن من كان كريزوستوم وباسيل يجتذبانهم من جماهير المصلين من أبناء الطبقة الراقية إلى كنيستيهما فى القرن الرابع الميلادى ، لم يكن يجتذبهم إليهما فقط حديث هذين المبشرين الزاكى فى وصف الأخلاق المعاصرة وشذرات علمى النبات والحيوان التى كانا يستخدمانها مداراً للتربية الخلقية ولشرح الكتاب المقدس، بل كان يجتذبهم كذلك إليهما مهارتهما البارعة فى استخدام جميع الخصائص الفنية الموسيقية التى طبعت عليها الخطابة الكلاسيكية . ومع ذلك ، فإن خواتيم العبارات التى كان باسيل يلقيها تحتوى من الدلائل ما يشهد بظهور بوادر الإيقاع المشدد الجديد ، حتى إذا انتهى القرن الرابع ، صارت هذه الخواتيم هى الصورة السائدة .

وظل الشعر المنظوم فى الأوزان القديمة بكل ماله من مقاطع محدودة العدد وما تحكم فيه من قواعد الكم ، بعيداً عن التأثر بالنبرة الديناميكية الدافعة أو المشددة ، وإن كان طابعه المصطنع يتجلى فى الزلات ، التى يقع فيها أحياناً بعض من مارسوه بعد القرن الرابع . بيد أن روح التصوف المسيحى التمست لنفسها متنفساً بابتكارها بعض الإيقاعات الجديدة التى استلهمت من النماذج السورية ، التى زخرت بها تراتيل ذلك العصر ، بما حوت من مُرجّعات شرقية وعاطفة نشوانة حارة ، والتى بلغت ذروة التطور فيما تردد تحت قبة كنيسة القديسة صوفيا من تراتيل رومانوس الفخمة .

وقد كان للتراث الجذل الخصب لفكر العبرانيين ودينهم الذى تبنته الكنيسة المسيحية فى أثناء القرن الأول من حياتها ، أعمق الأثر فى تشكيل الطقوس الدينية المسيحية . غير أن هذا التراث لم يكن إلا مظهراً واحداً من مظاهر الإحساس الدينى أى تعرفا إلى سر الله الباطن غير المرئى ، اشترك فيه

سكان الشرق الأدنى ، وينبغى التماس أصوله فى الماضى السحيق ، فيما كان لمصر وبابل من تقاليد[١] . على أن التأمل السلبي المتمعن فى الجوهر الإلهى ، والحرص على نبذ الفردية ، اللذين يميزان التدين الشرقى عما اتصفت به المفاهيم الإنسانية للفكر اليونانى من النشاط والحس العملى ، يتطلبان للتعبير عن نفسيهما إيقاعات عاطفية جديدة ، ويستلزمان مفردات لغوية جديدة بل يحتاجان إلى تركيب جديد للجمل . وفى إمكاننا أن نتعقب فى شعر الكنيسة المسيحية وطقوس صلواتها بعض المظاهر المشتركة فى العهد القديم والقرآن والبرديات السحرية ، وكما هو الحال فى فلك الفنون ، حيث حدث أن الانقلاب تشكل بالشكل اليونانى الرومانى الذى نقله إلينا ، حدث هنا بالمثل أيضاً أن ما كان للإله من صفات سلبية غير معقولة وانصراف التعبد إلى طبيعة الله وذاتيته ، لا إلى مظاهر نشاطه ، كل ذلك جرى التعبير عنه ، فى تراكيب العبارات بالجمل الوصفية والحالية وصلة الموصول ، كما جاء فى شكل مواعظ عجيبة ، ومختارات شعرية مهوشة حرة الحركة ، أدت آخر الأمر لا سيما فى حالة الطقوس إلى خلق شكل جديد من النثر الشعرى اليونانى .

وكان للمؤثرات الشرقية فى فن عالم البحر المتوسط وديانته وأدبه ، أثر دائم وقوى لا يتفاوت إلا فى مدى شدته ، وهو أثر يرجع إلى ما قبل التاريخ من أزمنة . فالعقائد الباطنية التى ترجع إلى أصل شرقى ، إنما دخلت منذ زمن مبكر فى تركيب الديانة اليونانية ، كما أن ما اشتهرت به مصر وآسيا الصغرى وسوريا من الشعائر العاطفية الخفية ، التى أدخلها فى أعقاب الفتوح الرومانية كل من كتائب الجند والأرقاء والتجار ، سرعان ما انتشرت فى أنحاء الغرب وتحكمت فى أخيلة السكان[٢] . ومع ذلك فعلى الرغم من أن العقيدة الرومانية

---

(١) انظر إ . نوردن فى (Agnostos Theos) ص ٢٢٢ (برلين ١٩١٣) .

(٢) وكتابات فرسيكوس ماترفوس ترجع إلينا صورة أخاذة للصفة الحقة للوثنية الشعبية فى القرن الرابع الميلادى .

انهزمت تماماً أمام العبادات الآسيوية ، فإن السيكولوچيا الدينية فى الغرب احتفظت بطابعها الأصلى ، كما أن فى الإمكان تفسير كثير من مظاهر المنازعات الدينية فى القرن الأول للمسيحية على أساس التباين والتناقض ، ليس فقط بين ما اشتهر به اتجاه اللاهوت اللاتينى من الصفة القانونية والحسية ، وما اتصف به كتاب اليونان من ميول خيالية ميتافيزيقية ، بل وأيضاً بين ما أكده الغرب فيما يتعلق بشخصية المسيح وأعماله فى سبيل الخلاص ، وبين ما اتصف به التفكير الشرقى من الاستغراق العاطفى فيما لطبيعة الله من جوهر مفرط الدنيوية .

الرمزية والمجازية

وأظهر الغرب نواحى خلاف أخرى مماثلة باستخدامه الرمزية والمجازية ، اللتين تعتبران على وجه الجملة العمليتين العقليتين المميزتين لتلك الحقبة . فإن التأويلات الساذجة بل المضحكة أحياناً لآيات الكتاب المقدس التى لقيت التأييد من جريجورى الكبير ، ترتبط تقريباً بأخيلة أوريجين الشعرية الرفيعة بنفس الطريقة التى ترتبط بها الأخيلة الثائرة الصاخبة والجمال الواقعى الماثل فى المصغرات والنحائت الرومانسكية ، بما عرف فى الفن البيزنطى من معالجة للرموز تتصف ببالغ الرقة والتجريد والكبح . ففى ذلك الفن ، ازداد الضيق فى تحديد إنتاج الصانع لعدة أسباب متنوعة فى كل من الموضوع والأسلوب . ذلك بأن النظر إلى ما وراء اللغة ، وإلى ما وراء العالم المرئى الذى يدركه العقل والحواس ، والتطلع إلى لغة أخرى خفية ، وإلى عالم سرى لا يعرفه إلا « المريد الدينى Initiate » ، إنما هو الامتياز الذى اختص به الشاعر والمتصوف فى كل العصور . وقد استخدم أفلاطون الرطازة (Myth) مع إحساسه بتحديدها ، لتزيد فى توضيح ما ليس فى الاستطاعة التعبير عنه

باللفظ . على أن فلاسفة آخرين قبله حاولوا الاحتفاظ بما كان للعقائد البالية السالفة من تعبير مقدس ، بالإشارة رمزاً أو مجازاً إلى سخافاتها أو استحالة وقوعها . ومع ذلك فإن الطريقة (Subject metha) الذاتية طريقة شديدة الخطر ؛ فإن الفرد نظراً لافتقاره إلى الضوابط الموضوعية ، يظل عرضة على الدوام لتيارات زمانه الخفية . وقد حدث أن مذهب اللاحيائية البدائى — (وهو الاعتقاد بوجود روح Mana فى الألفاظ والأفعال والأشياء غير الحية) الذى عاد من جديد فى صورة إحياء الشعوذة والتنبؤ — نفذ إلى الأفلاطونية الحديثة ، حينما ضعفت قواها وقدرتها الشاعرية على التنظيم ، واختفى التمييز بين الرمز وبين ما كان يمثله[1] ، وكان لذلك الاختفاء عواقب وخيمة . ودمر السحر وهو شىء مادى فى جوهره ، ما كان للإشارة المجازية من أساس روحى . وكانت نتيجة اضمحلال الطاقة الفكرية والخيالية القضاء على ما كان للرمز من وضع سليم مناسب[2] وقد حاول فيلون اليهودى المتهلن التوفيق بين التوراة السبعينية وبين الأفكار السائدة فى عصره بإدخاله تحريفا شعرى الجوهر على المعنى الحرفى للتوراة ؛ مثال ذلك أن الأباريق والطسوت وغيرها فى الأثاث والمتاع الموجودة بهيكل سليمان ، كانت عنده بمثابة مالروح النقية من فضائل وسجايا . وحرص الشراح المسيحيون على نقل طرائقه ، وبلغ الأمر بالقديس أو غسطين نفسه وهو يجادل بشدة أحد أتباع المانوية حين سأله عن المغزى الخلقى فى قصة داود

---

(١) انظر أ . فون . هرناك فى (History of Dogma) مج ٢ ص ١٤٤ (أدنبره ١٩٠٧) . إن مفهوم كلمة « رمز » لدينا فى هذه الأيام ليس ما تمثله تلك الكلمة ، فى ذلك الوقت (القرن الثانى الميلادى) كانت كلمة « رمز » تدل على شىء هو نفسه بشكل ما ، عين ما يدل عليه معناه .

(٢) انظر الانحراف الذى طرأ على الفكر الأفلاطونى فى سفر الحكمة (Ecclesiastieus) من الأسفار المحذوفة الإصحاح ٣٣ . آية ١٥ ، « تأمل فى كل ما صنع العلى ، وهناك اثنان واثنان أحدهما ضد الآخر » . وإصحاح ٤٢ آية ٢٤ ، « كل الأشياء مزدوجة أحدها ضد الآخر » .

و بِشَبَع ، أنه استطاع أن يؤكد أن داود هو المسيح وأن أوريا هو الشيطان ، وأن بثشبع وهى تغتسل على سطح البيت ، إنما تمثل الكنيسة التى سرعان ما ستصبح العروس السماوية التى تتطهر من أدران العالم السفلى . ومع ذلك ، فإن القوم لم يهملوا استخدام الرمزية على الوجه المشروع . إذ إن أوريجين وهو شاعر حقاً ، ولعله أعظم المفكرين المسيحيين الأوائل ، حاول التوفيق بين اختلافات العهدين القديم والجديد وبين كتاب الأناجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وبين الاختلافات الواردة فى كتابات بولس ورفاقه ، بما لجأ إليه من استعارة موسيقية أبرزها فى لحن إيقاعى سيمفونى[1] ، وهنا يمكن التقريب بين الأنغام المتنافرة بواسطة ممارسة ماقد يصل إلى الخيال الشعرى ، كما أن فى الإمكان إساغة مفاهيم بدائية كالمعنى الحرفى للأيام الستة التى خلق الله فيها العالم ، وذلك بالالتجاء إلى التفسيرات الخيالية الأسطورية . وكانت نتيجة هذه الطريقة إفساح المجال لذكاء الأذكياء ، وفتح باب الأمل فى استحداث تطورات جديدة : ولكن لم يقدر لهذا أن يحدث ، كما أن ازدياد اللجوء إلى اللعنات ، واشتداد جمود العقائد ، واتخاذ حلول مذهبية مخالفة للمعقول ، اجتمع ذلك كله فقطع الطريق على المفكر المستقل[2] . وترتب على انهيار الثقافة العامة ، أن ما كان الألفاظ من معنى أخذ يتراجع رويدا رويدا إلى الأوهام بعد أن حرم من ضبط العقل له ، وعلى هذا الأساس أقام العقل فى العصور الوسطى بنيانه . ولا تزال مقارنة جيروم الدقيقة الضليعة لمخطوطات التوراة السبعينية تحتفظ بأهمية الحقيقة التاريخية ، بوصفها شيئاً مميزاً عن تفسيرها ، غير أن أتباع ألكوين الذين حرصوا على التمسك بتعاليم معلمهم دون الاهتمام بممارستها ،

(١) انظر خياله الأوركسترالى المعجب فى (Philokalia) ٦ ، ٢ (P. G ١٣ بجوء ٨٣٢) .

(٢) تذييل ب .

لا يعتبرون متن الإنجيل مقدساً ، فإنهم لحرصهم الشديد على نبذ القشور المادية واستخلاص ما فى الكتب المقدسة من معنى روحى[١]، أظهروا استعدادا لإدخال التغييرات وإضافة العبارات التى تتفق مع آراء الشراح من آباء الكنيسة[٢]. ولم يكن المؤلفون الوثنيون أحسن منهم حالا ، إذ إنهم استخدموا المجازية باستخفاف فى الإفادة من محتويات تلك الكتب بقصد التهذيب . فقد بلغ بهم الأمر أن حرفوا معنى الكلمات التى استهلت بها الإنيادة وهى : « إنى أتغنى بمديح الأسلحة والرجال » (Arma Virumque Cano) فجعلوا لها سمة خلقية. فإن كلمة « الأسلحة » قد عد بعض الناس أن معناها الفضيلة ، وأن المقصود بالرجال هو « الحكمة »[٣]. والواقع أن هذه الطرق لم يكن الغرض منها إلا اختصار الطريق للوصول إلى الهدف البعيد الذى جعلته الكنيسة نصب عينها ـ وهو الدأب على إعادة تشكيل المعرفة القائمة وبذل الجهد الهائل لبنائها فى مشروع شامل متماسك للفلسفة المسيحية . وكان مفكرو القرون الأولى هم الذين بدءوا بالعملية ، ولكن نظرا لما يتسم به الخيال الرمزى من عناد والتواء لم يحدث بعد ذلك أى تقدم عام لمدة تقارب ٦٠٠ سنة ، وهى الفترة التى بدأت فيها الحركة (ولم يكن بدؤها خلوا من أثر الإلهام الإسلامى فى أسپانيا الذى حفظت به الترجمات العربية بعض نواح معينة للفكر الإغريقى) التى بلغت ذروتها بكتاب النهاية (Summa) الذى ألفه توماس الأكوينى ، وبالتعبير الأسمى لمسيحية القرون الوسطى، وهو كتاب الكوميديا الإلهية (Divina Commedia).

---

(١) انظر بيده فى : « Retecto cortice Litterae, altius et sacratius in medulla sensus spiritualis invenire »

( ) انظر ه . ه. جلنز فى (History of the Vulgate in England from Alcuin) (كمبردج ١٩٣٣) .

(٣) ان رادبرتوس (M. G. H Epist vi 6 - 16 , 143) لا يقنع حتى بهذا ، ولكنه يرغب فى استبعاد فرجيل من قائمة المؤلفين الذين ينبغى دراستهم .

الكنيسة والحركة الإنسانية

ومن المقطوع به أن الكنيسة المسيحية بمجموعها كانت فى أثناء عصور الانتقال تخشى العلوم الوثنية وترتاب فيها ؛ غير أن موقفها ذاك تخللته بعض الاستثناءات البارزة ، على أن تقاليد ترتوليان البالغة الصلابة كانت أقوى ، وهى التى كانت لها الغلبة فى النهاية بفضل تأييد جريجورى لها . على أن رد الفعل الطبيعى لما أصيبت به الكنيسة فى « العصور المظلمة » من امتهان ، أن يشتد التأكيد فى الآونة الأخيرة على ما اتسمت به الكنيسة من روح إنسانية فى العصور الوسطى ؛ ولكن المبالغة فى هذا الرأى ليست من الأمور المستبعدة ، وذلك لأن من المؤكد أن الغرض الوحيد من التعليم ببلاد الغرب فى ذلك العصر ، هو إعداد الكنيسيين للاضطلاع بواجباتهم[1] . وكانت المعرفة اللازمة لفهم الصلوات اللاتينية — وفى حالة التلاميذ الذين هم أكثر تقدما — دراسة المعلومات الضرورية للإحاطة بالأدب المسيحى الجدلى والتفسيرى ، وحساب عيد القيامة وسائر الأعياد ودراسة نظام الكنيسة القانونى والإدارى ، كل ذلك يؤلف فى حالات عديدة منهجا تعليمياً رائعا . هذا إلى أن الحياة النظامية التى تسود الدير بما لها من ساعات عمل منظمة ومكتبة خاصة وحياة اقتصادية مستقرة ، قد هيأ من الفرص للمحافظة على الثقافة إبان عهود الأخطار والأزمات ما لم يهيئه أى نظام آخر . ولكن ما أتمه علماء أفذاذ مثل بيده وأولدهلم من منجزات خارقة ، والمستوى الفكرى العالى الذى بلغته — حسبما يتراءى من المعايير المعاصرة — كل من كنتربرى ويورك وويرماوث وچارو بإنجلترة فى القرن السابع ، بل بلغته مناطق أقل أهمية مثل مالمبرى ونيرسلنج وبيشوبس والثام —

---

(١) انظر . روجر فى L' Enseignement des Lettres classiques en France d' Ausono d' Alucin ص ص ٤٣٧ ع ع (باريس ١٩٥٠) .

كل ذلك ينبغى ألا يخفى عنا أن ما ندين به من صون الأدب الكلاسيكى من يد الدمار وما نحس به على ذلك من الشكران ، كان من الأمور التى تستثير سخط السلطات الكنسية[١] الشديدة المحافظة على سلامة الكنيسة . كما ينبغى ألا يدفعنا إلى الاستهانة بالثغرة الضخمة التى تفصل بين علوم عصرنا هذا وبين علم چيروم ، فضلا عن علم أوريچين ، يوم كانت جميع موارد الحضارة القديمة لا تزال بين أيديهم . وقد ظلت هذه الموارد فى تناقص مستمر أمد قرون عديدة ؛ وذلك فوق ماقامت به الكنيسة من التقليل مما يتزود به الدارسون من علم . وانقطع الفكر الخلاق منذ أمد بعيد ؛ وانصرف اهتمام الناس فى أثناء ذلك العصر إلى المختصرات والمختارات وكتب النحو (الأجرومية) والمراجع العامة . واختفى من الغرب تماما كل تمكن حق وإجادة أصيلة للسان اليونانى ؛ فلم يظهر أحد بعد بويثيوس أية قدرة حقة على تمثل الفلسفة الهللينية وفهمها . أجل إننا نعثر فى المخطوطات الأرلندية على بعض الأحرف الإغريقية مستخدمة كحلية وزخرفة ، وعلى بعض العبارات المنعزلة ، وبعض الكلمات المنقولة من المعاجم ، كما أن بيده ينفرد بصفة استثنائية بإظهار شىء من المعرفة بالتوراة السبعينية[٢] . ولكن ليس ثمة أمارة واحدة تدل على استخدام اليونانية استخداما يتجلى فيه الخلق والابتكار . والواقع أن العلماء الموسوعيين السلبيين أمثال إيزيدور الأشبيلى ورابان ماور ، إنما هم النتاج الذى تتميز به مطالع العصور الوسطى ؛ وذلك أكبر شاهد على الضرورة القاسية الملحة ، التى تدعو إلى المحافظة على المعرفة القائمة درءاً لخطر البربرية التى تهدد بابتلاعها .

---

(١) أى جريجورى الأكبر ومدرسته القوية النفوذ . انظر التذييل ب .

(٢) عن معرفة الإغريقية فى ذلك الأوان انظر م . ل . و . لاستر فى (Thought of Letters in Western Europe) ٤٠٠ — ٩٠٠ الميلاد ص ص ١٢٥ ع ع ، ١٩ ع ع (لندن ١٩٣١) .

وكان ختام القرن السادس مسرحا لانهيار أكيد للثقافة بفرنسا ومعها إيطاليا أيضا ، ولكن بدرجة أقل . ومن آيات ذلك أن جريجورى أسقف تور أعظم كتاب غالة لم يكن يستخدم أحد التعبيرات البيانية حين نعى افتقاره إلى النحو والتعليم[١] ، ولا يخفى أن الأجيال التى أعقبته تردت فيما هو أعمق من ذلك من مهاوى البربرية[٢] . وقد انحطت اللاتينية الفصحى لغة الأدب ، وهى وسيلة التفكير ، فأصبحت رطانة عجيبة ، كما يتجلى ذلك من الوثائق القليلة التى ترجع إلى ذلك العهد، كما أن أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة كانوا يقرضون أشعارهم اللاتينية بلسان غريب عنهم لا يقل فى أعجميته عنه لدى أى تلميذ فرنسى فى أيامنا هـذه . وفى الحين نفسه وجد كثير من الاعتقادات والخرافات الشعبية طريقها إلى التعاليم الرسمية للكنيسة الغربية ، ولقيت التأييد من جريجورى الكبير[٣] بما كان له من سلطان ونفوذ قوى . وعلى الرغم من إدراك أوغسطين لما تنطوى عليه عبادة المقدسات والآثار الدينية من أخطار ، فإنه أجازها فى أشد صورها تطرفا[٤] حتى إذا انقطعت المواصلات واضطربت ظروف العيش وغلب الارتباك على المعايير والثقافات، انتعشت بواعث الإشاعات وسرعة التصديق ، وقوى الاعتقاد فى الأعاجيب والشياطين وفى قوة مفعول السحر وأدواته .

---

(١) مما هو جدير بالذكر أنه ليس لدينا مخطوط كلاسيكى واحد يمكن إظهار أنه نسخ فى غالة فى أثناء ذلك القرن . انظر س . ك . كروفورد فى (Angle Saxon Influence in Western Christendom) ، — ٦٠٠ — ٨٠٠ ص ٨١ (أوكسفورد ١٩٣٣) .

(٢) م . بونيه فى : (Le Latin de Gregoire de Tours) ص ٨٠ (باريس ١٨٩٠) .

(٣) ا . فون هارناك فى (Dog men geschichte) ، ٣ ص ٢٥٧ ع ع (الطبعة السادسة توبنجن ١٩٢٢) .

(٤) انظر ج . تسيلينجر فى (Augustin und die Volksrommigkeit) ص ص ٣٤ (برلين ١٩٢٢) .

الوثنية والخرافات

على أنه لا يجوز لنا أن نعتقد أن الأميين كان يسود بينهم قبل ذلك شيء من الاتجاه العقلي . إذ إن العالم القديم كان به من الآلهة ما يزيد على عدد الناس ، ولم تتمكن الديانات الرسمية ولا جهود المتعلمين فى التقريب بين الأديان من القضاء على العبادات المتأصلة فى الريف من أقدم الأزمان . وكان الجميع حتى الفلاسفة أنفسهم يعيشون ويتحركون فى جو ظللت فيه التقاليد البالية وطرائق الفكر القديم كل دار ، والراجح أنهم حاموا على أحفة الأدب الشعبي (فولك لور) والخيال الجميل ـ وكانوا شبه مصدقين لها إن لم يكونوا مصدقين تماما . على أن هـذه النزعات لم تتوار من الدنيا عند نهاية القرون الوسطى ؛ إذ إن الشعوذة بلغت فيما يرجح أقصى غاية تطورها عند نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن المسيحية لم توفق إلى تغيير الوضع فى هذه الناحية . وكما أن الدولة الرومانية قد أضفت فى النهاية قدراً كبيرا من نظمها وطرائقها على الكنيسة المسيحية المظفرة ، فكذلك فعلت الوثنية فى القرون الوسطى ، حيث نفضت على العقول ميراثها وهى تلفظ آخر أنفاسها . وفوق هذا ، فإن انتشار المسيحية بأوربا فى أثناء تلك القرون لم يكن مستكملا بأى حال . إذ إن روما مثلا وكثيرا من عائلاتها السناتورية ظلت زمنا طويلا معقلا حصينا للعبادات القديمة [1] وكانت المناطق الشمالية من إيطاليا فضلا عن النمسا

---

(١) انظر ف شنيدر فى (Rom und Romgedanke im Mittelater) (ميونخ ١٩٢٦) ـ هناك مثال رائع على استمرار الأعراف الوثنية فى روما هو (Cornomania) . فمنذ ٨٧ حتى زمن جريجورى الساع كان عميد (Séchola Contorum) يقوم على الملأ يوم السبت الذى يعقب عيد الفصح برقصة عجيبة فى ميدان اللاتيران . ويضع على رأسه فى أثناء الرقص إكليلا له قرون وتلوح يداه بصلصل ذى أجراس . وعندئذ ينثر أوراق الغار وهو يصيح : (iaritan, iaritan, iariar iastri, raphayn, iercoin, iariasti)

وجنوب فرنسا لا تزال تقيم العبادات لأرباب العصور الكلاسيكية القديمة . ولم تبرح الوثنية حتى عام ٦٥٠ تزدهر جهارا بكل ما أوتيت من معابد وتماثيل بجميع أصقاع غالة ، بل لقد ظلت تواصل بعد ذلك التاريخ نفسه نشاطها شمال نهر السين وبمناطق نهر الراين حتى القرن الثامن أو التاسع . واتخذ آلهة اليونان بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أشد ثياب التنكر والاستتار شفوفا . وكل ما حدث من التغير هو أن ما ينسب إلى الآلهة المحلية والينابيع المقدسة من قدرة على الشفاء ، نقلت بحذافيرها دون أدنى تغيير إلى القديس المختص ، كما أن الهيرون(Heroon)وهو ضريح الإله أو شبه الإله عند الوثنيين ،أصبح يسمى فى أحوال كثيرة دار الشهداء(Martyreion) ، ومركز الحج الذى يحتوى على مخلفات الشهيد المسيحى (١) ذات الأثر الفعال . وكان الشىء الكثير من هذه التغييرات متعمدا - وينطوى على حق تنازلت عنه الكنيسة إرضاء لقوة المشاعر الشعبية ، وللحاجة الماسة إلى مصدر ظاهر للسلوى ، ومرفأ مادى تلوذ به الأنفس . ولذا فإن أوغسطين يوضح أن تحويل عبادات الأبطال الموسمية إلى أعياد القديسين إنما هو إذعان حتمى لما يملأ جوانب الإنسان من ضعف وثنى . ففى غالة يحل الاستفتاح(٢) بالكتاب المقدس (Sortes Biblicae) محل النبوءات عند الوثنيين: كما أن عادة الفرنجة فى المحاكمة بواسطة المحنة والابتلاء أصبحت عملية مستساغة لها ما لقضاء الله وقدره من السلامة والصحة ، على حين أنه حدث فى إنجلترة أن مليتوس أسقف لندن تلقى التعليمات من البابا جريجورى بعدم منع التضحية بالثيران قرباناً « للشياطين » ، بل يأمر قومه أن يعمدوا -

(١) وعن الحاجة النافعة إلى الحذر فى أثناء تعقب مثل هاته البقايا الوثنية انظر هـ . ديليهاى فى (Les Legendes hagiographique) ص ص ١٤٠ ع ع (الطبعة الثالثة بروكسل ١٩٢٧) .

(٢) الاستفتاح فتح الكتاب فى أية صفحة استبشاراً به . (المترجم) .

عنـد الاحتفال بعيد الشهيد الذى تقدس مخلفاته محليا لديهم — إلى إقامة الجواسق حول كنائسهم ، وأن يولموا الولائم مجتمعين ، وينحروا الذبائح شكراً لله ، [١]. ومع ذلك فإن تبنى مثل هذه الممارسات وغيرها من العادات الفكرية ، غالبا ما كان نتيجة لنزعات لا شعورية ، ترجع إلى ما أحاط بالمسيحية فى القرون الأولى من بيئة وثنية ، وإلى جهل رجال الكنيسة وإعوازهم فى المعرفة مهما علا شأنهم ، وإلى اعتناقهم مبادئ مسيحية غير مفهومة تماما وإدخالها فى حياة أقوام سادتهم أنظمة اجتماعية أقدم عهدا .

على أن بعض الانحرافات لقيت من الكنيسة معارضة صريحة . مثال ذلك أن الرقص وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطقوس البدائية أوشك فى أحد الأزمنة أن يغمر الطقوس الدينية المسيحية بمصر ، فمنذ ٥٨٩ إلى ١٦١٧ انعقدت عدة مجالس كنسية متعاقبة وأجمع الوعاظ والمبشرون على تحريم الرقصات المغربية بما ارتبط بها من الأجراس والنقارات والتمثيل التنكرى ، وبما فيها من مخنثين وسارية مايو للرقص وارتداء أقنعة على هيئة رأس الغزال والكرنفالات والأهازيج [٢] . ونددت المجامع أيضاً بأغانى الحب التقليدية ؛ وحرم على المسيحيين [٣] تمجيد عاطفة الحب الرومانسى والإشادة بما يشيع فى الأساطير الكلتية والساجا النورسية من الفرح الضارى بالمعارك الحربية . واتهم اللسان الجرمانى نفسه ، وهو وسيلة الأفكار الوثنية ، بأنه لغة الشيطان .

بيد أن الوثنية ظلت رغم ذلك حية طوال العصور الوسطى ، إذ بقيت فى صورة عالم مستتر ذى أساليب ملتوية ومعتقدات مخلطة ، نشأت عن شعوب

---

(١) بيده فى (Hist. Eccl) ١ ، ٣٠

(٢) انظر ما كتبه الدوم جوجو بعنوان (Las Danse dans Les Egli ses) فى : (Rev. d'hist, eccl) مج ١٥ ، ١٩١٤

(٣) وجه النقد إلى الرهبان النورمبرجيين لتمسكهم بأغان مثل « أغنية بيوولف » .

متنوعة وطبقات اجتماعية متباينة ، وجمعت بين الاعتقاد الإيطالى فى أرواح النبات ، وبين أرواح المـاء وعفاريته عند السكلتيين ، وبين معتقدات التيوتون فى الغيلان وجنيات الفيرى . وبين وحوش السكندیناويين ، فضلا عن آلهة اليونان الجميلة الرشيقة فى صورتها المصغرة الضئيلة . ومن دون جميع هـذه التغيرات التى ألمت بالأسماء والمراسم ، طفق الفلاح يقيم حفلاته الموسمية العتيقة ، ويقدم الولاء لأرواح الخصب والنماء المرتبطة بأوقات البذار والحصاد. ولم تفارق أسماء تريستان وبيوولف وأبطال المآثر (نبلونجنلاید Nibelungenlied) الألمـانية ألسنة الناس وأفواههم[1] ، بل إن أعمال الاسكندر وقصة طروادة القديمة لم تنس نهائيا . ومع ذلك ، فإن هذه الصور التى كانت تتناقلها الألسن فى العصور الوسطى عن التاريخ الـكلاسيكى القديم ، وهى تحريفات وهميـة لموضوعات شوهت من قبل فى أزمنة التاريخ الرومانى المتأخرة ، — كانت أبعد ما تـكون عن الحقيقـة . فإن صورة ڤرجيل الساحر صانع العجائب ، والإسكندر بطل مجموعة القصص الشرقية الحالمة كقصص ألف ليلة وليلة ، ليست إلا انعكاساً مبهماً عن شخصية كل منهما الحقيقية . والواقع أن الناس فى تلك العصور كانوا كمن ينظر من خلال منظار معتم إلى أشكال العالم القديم وأحداثه البعيدة ، وهى أشياء بعيدة عن ظروف عيشهم وأحواله بعد أوربا العصور الوسطى عن أوربا فى زمننا الحاضر . أما روما ذاتها فلم تعد عند الحاج الممتلىء النفس بالرهبة ، تنطوى على ذكرى العاصمة العريقة النابضة بالحيوية والتجارة والرخاء . بل كانت مدينة مقدسة حافلة بالمزارات وذكريات

---

(١) عن الإحالات الـكثيرة إلى ساجا بيوولف فى المواعظ التى ألقيت فى المدة المتأخرة من العصور الوسطى . انظر ح . ر . اوست فى (Pulpitin Medieval England Literatureq) ص ١٠١ (كمبردج ١٩٣٣) .

الاستشهاد والشهداء ، فضلا عن كونها مدينة خرائب تسكنها الأشباح ، ومدينة أساطير وأحداث عجيبة ارتبطت بماض مدهش ، وكانت بلداً يطرد البابوات فيه بالرقى الثعابين الجالبة للطاعون ، أو يصفدون الوحوش والتنائن بالأغلال تحت الكابيتول بما يتلونه من تعاويذ .

تراث روما

ومع أن الحصول على صورة واضحة للعهود العتيقة ربما كان أبعد منالا على عقول الناس فى العصر الوسيط منه على العقول المعاصرة ، فإن حضارة الإمبراطورية الرومانية لم تبرح هى القالب الذى تصاغ على غراره القوانين والنظم وأنماط الفكر التى كانت تتحكم فى الحياة البشرية فى أثناء العصور الوسطى ، والتى قدر لها آخر الأمر أن تعم أوربا كلها . وكان المثالون والمعماريون بكل من إيطاليا وجنوب فرنسا مصدر الإلهام لخلفائهم فى العصور الوسطى . واعترف الناس جميعاً أن الحكمة البشرية كلها قد اجتمعت للمؤلفين القدماء ، كما أن أدب عصر أوغسطس كان يستهوى بقوة خيال القارئ وإن كان غير راغب فيه إلى حدما . واحتفظت الكنيسة لنفسها بإطار التنظيم الرومانى وهيكله ، وعلى الرغم من أن المثل الأعلى للوحدة الأوربية بكل ما بشر به فى نشوء ثقافة أوربية مشتركة قد تحطم عند وفاة شرلمان ، فإنه ظل حافلا بالآمال فى الانتعاش والنهوض فى خاتمة المطاف . وما ذلك إلا لأن ذلك المثل الأعلى أقام لنفسه حصناً منيعاً بفرنسا والأقطار المحيطة بها تحطمت عليه الموجات العاتية من أعاصير الثيكنج والمجر والمسلمين وأوهنت على صخوره قوتها بغير طائل ، حصناً كان يحوط بحراسته ما تحويه أديرتها وقصورها من كنوز روحية ومادية ، انتزعت بغاية العجلة والاضطراب الشديد من بين حطام العالم العهيد .

تذييل (١)

الجهاز الإمبراطورى فى القرن الرابع الميلادى

١ — الإمبراطور

لا يزال من الناحية النظرية ينتخبه السناتور والجيش — والواقع أن مبدأ وراثة العرش كان يقوم إلى حد كبير على الأسرات ، وذلك نظراً لأن الإمبراطور فى أثناء حكمه كان يستطيع تعيين خلفه بصورة غير مباشرة بمنحه لقب أوغسطس .

٢ — مجلس الشيوخ (السناتو)

كانت العضوية فيه إما لأبناء أعضائه ممن شغلوا منصب برايتور (Praetor) ، وهى وظيفة كان أهم أعمالها فى ذلك الوقت دفع نفقات الألعاب أو الأشغال العامة ؛ وإما لأعضاء الهيئات الثلاثة (Illustres, Spectabiles, Clarissimi) التى تولوها بحكم مناصبهم أو مكافأة لهم عند التقاعد . على أنه لم يكن يحظى بالعضوية إلا عدد قليل بتفضل خاص من الإمبراطور (adlectio) .

٣ — المجلس

كان مجلس الدولة المعروف باسم (Consistorium) تطوراً وامتدادا لمجلس (Consilium) الذى أسسه هادريان . وكانت العضوية فيه آنذاك دائمة (Comites Consistoriani) ، وتشمل كبار الموظفين ، ويقوم بخدمة الإمبراطور ويجتمع دائماً لإسداء المشورة حول سياسة الحدود والمشكلات التشريعية والإدارية . وكان يتولى أيضاً محاكمة من يتهمون بالخيانة .

٤ — الموظفون الإمبراطوريون

كان أهم الموظفين الذين فى خدمة الإمبراطور هم :

(ا) كبير الموظفين (Magister Officiorum) ، وهو يتولى الرئاسة على عدد من الإدارات المتنوعة ، التى تعالج الاسترحامات والالتماسات والسفارات والمراسيم وبريد الدولة ومصانع الدولة للأسلحة . وكان يقود كذلك الحرس الملكى المسمى « بالاسكلارية (Scholarian) » (انظر مابعده) ورجال المخابرات (Agents inrebus) الذين يوفدون فى مهام دقيقة والذين درجوا بوجه خاص على كتابة التقارير حول سوء تصرفات الموظفين فى الأقاليم .

(ب) كوايستر القصر المقدس (Quaestor Sacri Palatii) . وهو أكبر مستشار للقانون ، ويتولى وضع مشروعات القوانين والمراسيم الإمبراطورية .

(ج) كونت الخزانة المقدسة (Comes Sacrarum Largitionum) . وهو وزير المالية الذى يرأس موظفى الخزانة ودارسك النقود والجمارك وجميع الجهاز المالى فى الأقاليم . وكان كونت الأملاك الخاصة (Comes Rerum Privatarum) يدير إيرادات مزارع الإمبراطور . والراجح أنه بعد أن يدفع أجور مرءوسيه كان يسلم ما تبقى من الإيراد لكونت الخزانة المقدسة ، مثلما كان يفعل البرايتوريون الذين كان لكل منهم خزانة (Fiscus) .

(د) وكان هناك من الناحية العملية موظف لا يقل عن هؤلاء أهمية هو كبير الأمناء (الحجاب) (Praepositus Sacri Cubiculi) وهو فى العادة خصى ، وله عادة نفوذ شخصى عظيم على الإمبراطور ، وإن كان فى ذلك خروج على الدستور ، وهو الذى يتولى الإشراف على موظفى القصر وشئون الدور الإمبراطورية .

٥ — الجيش

كانت القيادة العليا فى أيدى مقدمى الجند (Magistri Militum) .وكان هناك فى الشرق خمسة مقدمين للراكبة والراجلة (Magistri equitum peditum) يعنى الفرسان والمشاة ، كان اثنان منهما يقيمان بالقسطنطينية فى خدمة الإمبراطور المباشرة (in praesenti) ، وكل منهما يتولى قيادة نصف حرس القصر . فأما القواد الثلاثة الباقون فيتولون الشرق وتراقيا والليرية . وكان هؤلاء الخمسة متساويين جميعاً . وكان هناك فى الغرب مقدمان للجند يقومان على الخدمة (in praesenti) ، وهما يقيمان بإيطاليا : أحدهما لقيادة المشاة والآخر لقيادة الفرسان . وكان مقدم المشاة أهم كثيراً من رفيقه ، ثم أصبح قرب نهاية القرن الرابع القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية بالغرب ، وقد اتخذ لقب مقدم الخدمتين (Magister utriusquemili) . وهو الذى يقرر إلى حد كبير سياسة الدولة فى الغرب ، حيث أصبح الإمبراطور فى الغرب مجرد ظل أو دمية . وكان النظام المتبع فى الشرق وهو نظام القواد المتعادلين يحول فى العادة دون نشوء مثل هذه التطورات .

ويمكن تقسيم الجيوش على الجملة إلى :

(ا) جيش الميدان أو الرفقاء (Comitatenses) (وهو جيش الميدان المتحرك الذى يتكون منه حاشية الإمبراطور أو الرفقاء Comitatus) . وهو القوة الرئيسية الضاربة التى تصحبها عادة جماعات ضخمة من جند المتبربرين المسماة بالجند المحالفين (Foederati) .

(ب) جند الثغور الثابتون (جيش الأطراف (Limitanei or ripeneses) وهم جند يرابطون دوماً على الحدود بقيادة أدواق ، وهم تابعون لمقدمى الجند كما أنهم أدنى مرتبة ونوعاً من القوات المتحركة .

(جـ) حرس القصر ، الاسكلارية (Scholarii; Palatini) ، وهى كتائب منوعة من جند حراسة « الدار » الإمبراطورية ، منها ما يتخذ للزينة ويستخدم فى المواكب ، ومنها ما له قيمة عسكرية بالغة . ومنهم من كان تحت القيادة المستقلة لناظر الدواوين وحده (Magister Officiorum).

٦ — حكومة الأقاليم

لتحقيق أهداف الإدارة المدنية ، قسمت الإمبراطورية إلى أقسام كبرى أربعة ، و ولايات (Prefectures) (اثنان منهما فى الغرب واثنان فى الشرق) ، ويحكمها أربعة ولاة پرايتوريين .

(ا) إقليم الغاليين ، ويشمل إلى جانب غالة ، بريطانيا وأسپانيا والركن الشمالى الغربى لإفريقيا .

(ب) إقليم إيطاليا ، ويشمل إلى جانب إيطاليا سويسرة والأقاليم الواقعة بين الألب والدانوب ، فضلا عن المناطق الساحلية بشمال إفريقيا .

(جـ) إقليم اليرية (Illyrieum) ويشمل شبه جزيرة البلقان عدا تراقيا .

(د) إقليم الشرق ويضم تراقيا ومصر ، وجميع الأراضى الأسيوية التابعة للإمبراطور . وانقسم كل إقليم من هذه الأقاليم إلى دوقيات (Dioceses) مجموعها سبع عشرة دوقية ، ويتولى الحكم فى كل منها ڤيكار أى وال ، وكانت كل دوقية تنقسم بدورها إلى مقاطعات (محافظات) . كان لحكامها ألقاب مختلفة هى القنصلارى والكريكتورى والرئيس ,Consulares Correctores, Praesides) . وهناك مناطق ثلاث بقى فيها منذ أيام الجمهورية اللقب القديم : البرو قنصل ، وهى إفريقيا وآسيا وآخيا .

وكان من اختصاص الولاة الأربعة (بأمر الإمبراطور) تعيين ولاة

المقاطعات والإشراف على أعمال كل من المحافظين والفيكارية ، وشئون المئونة والأرزاق والجيوش المرابطة فى أقاليمهم ، وكانوا هم كبار قضاة الاستئناف ، ومن حقهم إصدار القرارات (البرايتورية) فى كل الأمور التفصيلية . ويعتبر الواليان البرايتوريان فى الشرق وإيطاليا أعلى موظفى الإمبراطورية مكانة . وكانت لولاة الدوقيات (الملقبين بالفيكارات) ولحكام المحافظات سلطات قضائية وإدارية ، كما أنهم كانوا يشرفون على جميع الضرائب . ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين اختصاصات عسكرية . إذ كان الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية من أهم إصلاحات عهد دقلديانوس وقسطنطين .

٧ — العواصم

كانت كل من روما والقسطنطينية فى ذلك الوقت مركزا لحكومة مزدوجة متوازية تدير الأجزاء الشرقية والغربية من الإمبراطورية الرومانية . على أن هاتين العاصمتين وأرباضهما تخرجان عن اختصاص الولاة البرايتوريين ، بل تتبع كل منهما والى المدينة (Praefectus Urbi) دون غيره ، الذى هو أيضاً رئيس مجلس السناتو وكبير قضاة الجنايات ، كما كان يهيمن على الشرطة (Vigiles) بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، فضلا عن الإشراف على السقايات والأسواق وتزويد المدينة بالقمح وعلى نقابات الصناع (Collegia) .

٨ — الضرائب

(ا) الضريبة السنوية (Annona) : وتؤديها الإمبراطورية كلها عيناً وأحياناً بالنقد . وكانت القيمة الكلية الواجب جبايتها تعلن كل سنة بقرار (Indictio) يصدره الإمبراطور . وعندئذ يتقاسم الولاة البرايتوريون هذا القدر ، ويتحمل كل نصيبه . وتمسح الأراضى وتقدر قيمتها حسب قدرتها

الإنتاجية ، ولذا فإن الوحدات (Juga) كانت مساحتها تختلف تبعاً لخصوبة التربة ونوعها . والوحدة الضرائبية (Jugum) من الناحية النظرية قدر من الأرض يكفى لإعالة فلاح واحد (Caput) وأسرته .

(ب) الضرائب الفترية (التى تؤدى فى أزمنة معينة) : عند تولية الإمبراطور الجديد على العرش وعند انتهاء فترة كل خمس سنوات ، كان الناس يطالبون بسداد مبالغ طائلة لتمنح هبة للجند . وكانت تلك المبالغ تجمع على الأوجه التالية :

١ — الهدايا الإجبارية (Aurum ob'aticium) وهى هبات يبذلها أعضاء السناتو .

٢ — هدية التيجان (Aurum Coronarium) وهى هبة مماثلة للسابقة يقدمها حكام المدن (Decuriones) وكانت تصنع فى الأصل على شكل تيجان ذهبية .

٣ — الضريبة (أو المساهمة) الخمسية (Lustralis Collatio) (وتدفع كل خمس سنوات) وهى ضريبة على الأرباح التجارية .

(حـ) ضريبة (Collatio glebalis) وتدفعها الطبقة السناتورية ، وهى ضريبة مدرجة على الأملاك ، يسميها الشعب عادة باسم ضريبة الأكياس (Follis) لأنها كانت تؤدى فى أكياس (ومعنى لفظة Follis هو كيس العملات الصغيرة) .

(د) الضرائب غير المباشرة وغيرها . ومنها الضرائب الجمركية والمناجم ومصانع الدولة وإيرادات وأرباح الضياع الإمبراطورية الضخمة .

تذييل (ب)

(ص ٢٧) : (١) الاقتصاد النقدى والاقتصاد الطبيعى

إن مسألة الانتقال من الاقتصاد النقدى فى القرنين الأولين الميلاد إلى الاقتصاد الطبيعى فى مطالع القرون الوسطى قام بدراستها ج . مكفتز فى : (Geld uud Wirtschafr im rômischen Reich das 4 Jahrh. n. Chr., Helsingfors, 1933) والراجح أنه حتى فى القرن الرابع الميلادى نفسه لم تتخل المالية الخاصة بوصفها مقابلا لمالية الدولة عن الأساس النقدى . ولذا فإن التضخم المالى ، الذى حدث فى أخريات القرن الثالث لم يكسب الاقتصاد « الطبيعى » أية ميادين أخرى جديدة ، واقتصر على مجرد زيادة انتشاره فى الدوائر التى سبق أن شغلها ـ حتى أنه لم يبد فى إيطاليا فى عهد ثيودوريك نفسه إلا تغيير قليل فى نظام المالية العام . فإن مملكة القوط الشرقيين لا تزال بعيدة عن الأحوال الاقتصادية فى دول أوربا الغربيـة فى مستهل القرون الوسطى . (انظر هـ جايس فى Geld und naturalwirtscaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aafbau Italens wahrend der Gotenzeit) (شتوتجارت ١٩٣١) .

وهناك مسألة معقدة لا تزال بحاجة إلى توضيح وهى : إلى أى حد كان نظام التبادل فى الغرب فى أثناء القرون التى أعقبت تأسيس الممالك المتبربرة قائمـاً على النقود ؟ ذلك أن المقايضة كانت تعيش على الدوام جنبا إلى جنب مع استخدام وسيط فى العملة ، وحق لدوبش فى كتابه (Natural-und Geldwirtschaft) (ڤيينا ١٩٣٠ ص ١١٠) أن ينكر الرأى القائل بأن الجرمان درسوا النظام الاقتصادى القائم على النقد فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، وأنهم أحلوا

مكانه اقتصاداً طبيعيا أنسب لحاجاتهم البدائيـة . إذ الواقع أن النقود ظل استخدامها شائعا بين الناس طوال عهد الميروڤينچيين والـكارولنچيين (وبخاصة فى جنوب فرنسا وإيطاليا وفى دفع الغرامات والضرائب) غير أن ما أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب من تفـكك نظام الحـكومة واضطراب للتجارة ، أدى رويداً رويدا إلى قيام مجتمعات محليـة تعيش على الا كتفاء الذاتى ، والراجح أن وسيلة المبادلة السائدة كانت المقايضة المباشرة . كما أن الجزاء على الخدمات التى تؤدى لم يكن بالنقد .

(ص٣٠٣) (٢) معركة تحطيم الصور وما دار فيها من جدل

كان رد دعاة التحطيم على الاتهامات المذهبية التى كان يوجهها إليهم خصومهم قائما أيضا على الأصول السليمة لعلم طبيعة المسيح . إذ إن الطرفين اعترفا أن كل ما يتعلق بالله لا يمكن تمثيله بالصور بغير التعرض للكفر . وللمسيح طبيعتان : طبيعة بشرية وأخرى ربانية . فادعاء تمثيل الطبيعة البشرية وحدها كان يناقض الاعتقاد باستحالة انفصال الطبيعتين ، وفيـــه انزلاق إلى ما يسمى بالزندقة النسطورية . على أن الزعم بإمكان تمثيل الطبيعتين معاً فى صورة ، يكاد يدانى إنـكار تمايز الطبيعتين إحداهما من الأخرى ، وبذا يصـل إلى الاتفاق مع الهرطقة المقابلة ، وهى هرطقة وحدة الطبيعة (المونوفيزيتية) . وذلك ينطوى أيضاً على ضرب من الـكفر ، نظرا لدلالته على الرغبة فى تمثيل شىء إلهـى . وبذا يصبح كل تمثيل للمسيح مستحيلا ، وذلك لأنه كان يخالف الأسس الجوهرية للعقيـدة المسيحية . انظـر ج . أوستروجورسكى (Rom und Byzanz im Kampfe um die Bilderverehrung", Seminarium Kondakovianum, Vi) (براغ ١٩٣٣ ص ٦٢)

(ص ٣٨٤) (٣) التقسيم الثلاثى لمجتمع العصور الوسطى

تتجلى الطبقات الاجتماعية الثلاث تماما فى التأملات الشخصية التى أدرجها الملك ألفريد الأكبر فى ترجمته لكتاب بوئيثيوس : « سلوى الفلاسفة » « De Consolatione » . وفى تلك التأملات يقول إن المادة الغفل وأدوات الحكم لأى ملك إنما هى : بلاد آهلة بالسكان وقسيسون يقيمون الصلوات ، وجند يشنون الحروب ، وعملة يقومون بالأعمال . ومن العجيب أن اقتراب انحلال هذا الطراز من المجتمع ، عند نهاية العصور الوسطى توضحه فقرة فى إحدى العظات (exemplum) الواردة فى مخطوطة إنجليزية من القرن الرابع عشر (انظر ج . ر . أوست فى Literature & Pulpit in Medieval England (كمبردج ١٩٣٣ ص ٥٥٣) . « خلق الله رجال الدين والفرسان والعمال ، ولكن الشيطان خلق اللصوص والمرابين » . ولما أن انزعج الواعظ إزاء النظام المتغير الذى كان يحس فى إبهام بما يلم به من تغير ، مثل انقسام المجتمع إلى ثلاثة أقسام على أنه جزاء إلهى ، على حين أنه نظر بعين الخوف والكراهية إلى نمو التجارة الذى يؤذن بنهاية العصور الوسطى .

(ص ٤٠١) (٤) بين العقل والاعتقاد

يناقش ا . ج . ماكدونلد فى كتابه (Authority & Reason in the Early Middle Ages) (أوكسفورد ١٩٣٣) التطورات التالية . فالقواعد المنطقية التى كان يعلمها بوئيثيوس للناس والتى أرست أسس الفلسفة المدرسانية ، قد أسىء استخدامها إبان القرون التالية ، غير أن فئة قليلة من المفكرين الأذكياء أمثال برينجار ويوحنا الاسكتلندى استطاعوا استخدامها بصورة نافعة فى التفسير العقلى للكتاب المقدس . وكان برينجار يرى أن العقل أو الإدراك

السليم ينبغى أن يكون الفيصل فى شأن أية فقرة من الـكتاب المقدس : وهل ينبغى أن يكون تفسيرها حرفياً أو مجازياً أو خليطا يجمع بين الاثنين . ومن هنا فإن عبارة « Hoc est corpus meum تفسر فيها الـكلمات حرفيا بالخبز ومجازيا بجسم المسيح ولـكن السلطات لم تـكن تطيق قبول هذه الآراء ، ومن ثم استنزلت كنيسة العصور الوسطى اللعنة على أعمال الرجلين . واكتشفت البابوية فى ادعائها الحق فى الفصل فى المذاهب المذهبية ، سلاحا قويا تشهره فى صراعها مع الإمبراطورية ، ومن ثم فإن تدخلها الذى كلل بالنجاح فى قضية برينجار يعتبر مرحلة فى توطيد هذا الادعاء . وتم النصر نهائياً بالتعريف الذى وضعـه أنوسنت الثالث لمذهب العشاء الربانى فى المجمع الرابع باللاتيران فى (١٢١٥). وبذلك تهيأت الوسائل إلى مجمع ترنت وإلى مجمع الفاتيكان فى (١٨٧٠). « وإذ صار هذا التعريف حكما يرجع إليه فى مسائل الإيمان بصورة مستقلة عن تقاليد آباء الـكنيسة والتقاليد المتأخرة ، فإنه أقر مبدأ التقاليد وبذلك استبعد العقل من مجال العقيدة ». (انظر الموضع السابق ص ١١٢) .

(ص٤٠٤) (٥) إيرلندة والمحافظة على الدراسات القديمة

استلفت الطابع الـكلتى لإحياء العلوم والآداب بنورنمبريا أنظار الناس إليه فى الآونة الأخيرة (انظر ل. جوجوه فى . Christianity in Celtie Lands (لندن ١٩٣٢ ص ص ٥٠ ـ ٥٥) . ونظراً لأن الأديرة الإيرلندية كانت تقع فى بلاد ظلت على الدوام خارج دائرة الإمبراطورية ، فإنها خلت من كل أثر للعقائد اليونانية الرومانية ، ولذا لم تـكن تخشى كغيرها ما ارتبط بالآداب القديمة (الـكلاسيكية) من ارتباطات وشوائب وثنيـة . ونظراً لما اشتهر به مسيحيو إيرلندة من سعة الاطـلاع واستيعاب ما كتبه قدماء المؤلفين وشغفهم

بنظامهم القومى واتجاههم الاستقلالى الذى لا يضارعه سوى ولعهم بدراسة الأسفار المحذوفة (من الكتب المقدسة) التى تنكرها روما وتمنعها ، كل ذلك جعل منهم مدرسة فكرية متميزة ، وخطراً يتهدد السلطة المركزية للبابوية ، لم يستأصله إلا ما حل بهم من هزيمة فى مجمع هويتبي (٦٦٤) ، غير أن تلك الهزيمة لم تصبهم إلا بعد أن تمكنوا بمساعدة ثيودور وهادريان (وكلاهما لا ينتمى إلى مدرسة جريجورى) من نقل قدر كبير من تراث العلوم القديمة ، ونقلها إلى العلماء الإنجليز السكسون ومنهم إلى فرنسا الكارولنجية، وهى علوم لولا الإيرلنديون لتعرضت للدمار . وقبل ذلك الأوان بزمن مديد كان الأثر الكلتى يتغلغل فى أوربا حتى فورتزبرج وسالسبرج وبوبيو ، ولذا فإن الجانب الأكبر من المحافظة على الثقافة الكلاسيكية فى الغرب فى أثناء هذه الفترة ، إنما يرجع بحق إلى الكنيسة الكلتية الخارجة على الأرثوذكسية .

(ص ١٩٩) (٦) النصوص القانونية الثلاثة

لم تكن «الفصول الثلاثة» فى الأصل سوى ثلاثة نصوص وردت فى مرسوم أصدره چستنيان فى ٥٤٣ ، رمى به إلى مصالحة أصحاب مذهب وحدة الطبيعة وندد فيه ببعض الكتابات التى كتبها ثلاثة من رجال اللاهوت فى القرن الخامس ، اتهموا ببعض الميول النسطورية . ولم يلبث اسم « الفصول الثلاثة » أن انتقل من هذه النصوص إلى الكتابات ذاتها ، واستخدم الاسم هنا فى معناه الأخير ، ولكن مجمع خلقدونية (٤٥١) الذى لعب فيه ليو الأكبر دوراً رئيسياً والذى لقى فيه أتباع مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيون) الهزيمة ، قد رد الاعتبار إلى رجال اللاهوت الثلاثة الذين دار حولهم النزاع ،

وبذلك أدخل فى الأمر نقطة خلاف رئيسية بين الاسكندرية وبين الكاثوليك الغربيين . ولما لم ينجح چستنيان فى الوصول إلى نتيجة بإقصاء البابا عن الكرسى البابوى ، دعا فى (٥٥٣) إلى عقد المجمع الثانى بالقسطنطينية ، وفيه حقق رغبته رسمياً باعلان بطلان « الفصول الثلاثة » . على أن قرارات المجمع لقيت مقاومة عنيفة فى الغرب ، ومع ذلك فقد اعترف الغرب نفسه بأنه مجلس مسكونى ، وأنه صحيح ، له من الصحة ما للمجالس الأربعة السابقة ، وذلك فى عهد جريجورى الكبير .

الأباطرة والبابوات

الأباطرة	البابوات
٣٧٩ ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٦٦ داماسوس الأول
٣٩٣ هونوريوس (فى الغرب)	٣٨٥ سيريكيوس
٣٩٥ اركاديوس (فى الشرق)	٣٩٩ أناستاسيوس الأول
٤٠٨ ثيودوسيوس الثانى (الشرق)	٤٠١ انوسنت الأول
٤٢٥ فالنتينيان الثالث (الغرب)	٤١٧ زوسيموس
٤٥٠ مارقيان (الشرق)	٤١٨ بونيفاس الأول
٤٥٥ مكسيموس ، افيتوس (الغرب)	٤١٨ (بولاليوس ، البابا المناهض)
٤٥٧ ماجوريان (الغرب)	٤٢٢ سيلستين الأول
٤٥٧ ليو الأول (الشرق)	٤٣٢ سيكستوس الثالث
٤٦١ سيفيروس (الغرب)	٤٤٠ ليو الأول (الكبير)
٤٦٧ انثيميوس (الغرب)	٤٦١ هيلارى
٤٧٢ أوليبريوس (الغرب)	٤٦٨ سيمبليكيوس
٤٧٣ جليكريوس (الغرب)	٤٨٣ فيلكس الثالث
٤٧٤ يوليوس نيبوس (الغرب)	٤٩٢ جيلاسيوس الأول
٤٧٤ ليو الثانى (الشرق)	٤٩٦ أناستاسيوس الثانى
٤٧٤ زينون (الشرق)	٤٩٨ سيماخوس
٤٧٥ رومولوس أوغسطولوس (الغرب)	٤٩٨ (لورنس ، البابا المناهض)
٤٩١ أناستاسيوس الأول	٥١٤ هورميسدس
٥١٨ جستين الأول	٥٢٣ يوحنا الأول
٥٢٧ جستنيان	٥٢٦ فيلكس الرابع
٥٦٥ جستين الثانى	٥٣٠ بونيفاس الثانى
٥٧٨ تيبريوس الثانى	٥٣٠ (ديوسقوروس ، البابا المناهض)
٥٨٢ موريقيوس	٥٣٣ يوحنا الثانى
٦٠٢ فوقاس	٥٣٥ اجابيتوس الأول
٦١٠ هرقل	٥٣٦ سيلفريوس
٦٤١ قسطنطين الثالث هرقليوناس ، قسطانس الثانى	٥٣٧ فيجيليوس
٦٦٨ قسطنطين الرابع (پوجوناتوس)	٥٥٥ بيلاجيوس الأول
٦٨٥ جستنيان الثانى	٥٦٠ يوحنا الثالث
	٥٧٤ بندكت الأول

الأباطرة	البابوات
٦٩٥ ليونتيوس	٥٧٨ بيلاجيوس الثانى
٦٩٨ تيبريوس الثالث	٥٩٠ جريجورى الأول (الكبير)
٧٠٥ جستنيان الثانى يعود للعرش	٦٠٤ سابينيانوس
٧١١ فيليب باردانس	٦٠٧ بونيفاس الثالث
٧١٣ اناستاسيوس الثانى	٦٠٧ بونيفاس الرابع
٧١٦ ثيودوسيوس الثالث	٦١٥ دبو- ديديت
٧١٧ ليو الثالث (الإيسورى)	٦١٨ بونيفاس الخامس
٧٤٠ قسطنطين الخامس (كوپرونيموس)	٦٢٥ هونوريوس الأول
٧٧٥ ليو الرابع	٦٣٨ سيفرينوس
٧٨٠ قسطنطين السادس	٦٤٠ يوحنا الرابع
٧٩٧ ايرين تخلع قسطنطين السادس	٦٤٢ ثيودور الرابع
٨٠٢ نقفور الأول	٦٤٩ مارتن الأول
٨١١ ميخائيل الأول	٦٥٤ يوجين الأول
٨١٣ ليو الخامس	٦٥٧ فيتاليان
	٦٨٢ اديوداتوس
	٦٧٦ دمنوس أو دومس الأول
	٦٧٨ أجاثو
	٦٨٢ لئيو الثانى
	٦٨٣ (؟) بندكت الثانى
	٦٨٥ يوحنا الخامس
	٦٨٥ (؟) كونون
	٦٨٧ سرجيوس الأول
	٦٨٧ (بسكال ، البابا المناهض)
	٦٨٧ (ثيودور ، البابا المناهض)
	٧٠١ يوحنا السادس
	٧٠٥ يوحنا السابع
	٧٠٨ سيسينيوس
	٧٠٨ قسطنطين
	٧١٥ جريجورى الثانى
	٧٣١ جريجورى الثالث
	٧٤١ زخارياس
	٧٥٢ استيفن الثانى
	٧٥٧ بولس الأول
	٧٦٧ (قسطنطين ، البابا المناهض)
	٧٦٨ استيفن الثالث
	٧٦٢ هادريان الأول
	٧٩٥ ليو الثالث

جدول تاريخى

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
		٣١٢ مرسوم ميلان	
		٣٢٥ مجمع نيقية	
		٣٢٨ ـ ٧٣ اثناسيوس أسقف الإسكندرية	
	٣٣٠ إنشاء القسطنطينية		ح ٣٣٠ وفاة ايامبليكوس
			٣٤٠ وفاة يوسيبيوس
٣٥٧ ـ ٨ حملات جوليان على الراين			
		٣٧٤ ـ ٩٧ امبروس أسقف ميلان	
	٣٧٦ عبور القوط للدانوب		
	٣٧٨ معركة أدرنة		
			٣٧٩ وفاة باسيل أسقف قيصرية
		٣٨١ مجمع القسطنطينية	
			٣٨٨ وفاة أولفيلاس
	٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الكبير		ح ٣٩٥ وفاة أوسونيوس
		٣٩٨ كريزوستوم أسقف القسطنطينية	
٣٩٩ معركة إفريجيدوس			
	٤٠ تمرد جايناس		ح ٤٠٠ وفاة أميانوس ماركيلينيوس
٤٠٦ تأسيس المملكة البرجندية على الراين			ح ٤٠٦ وفاة پرودنتيوس
٤٠٦ ـ ٧ الوندال يغزون غالة			
٤٠٨ إعدام استيليكو			ح ٤٠٨ وفاة كلوديان
٤٠٩ الوندال والألان والسويف فى أسبانيا			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
٤١٠ استيلاء ألاريك على روما			
٤١٢ القوط الغربيون فى غالة			
	٤١٣ بناء أسوار القسطنطينية البرية		
٤١٦ ـ ١٨ القوط الغربيون بأسبانيا			
			٤١٩ وفاة جيروم
ح ٤٢٠ ـ ٤٠ الأنجلو سكسون ببريطانيا			
٤٢٨ ارتقاء جايسريك العرش	٤٢٨ ـ ٦٣٣ الحكم الفارسى بأرمينية	٤٢٨ نسطوريوس أسقف القسطنطينية	
٤٢٩ الوندال فى إفريقية		٤٢٩ بعثة التبشير الجرمانية إلى بريطانيا	
			٤٣٠ وفاة أوغسطين
		٤٣١ مجمع إفيسوس	
	٤٣٣ ارتقاء أتيلا العرش		
٤٣٦ نهاية المملكة البرجندية الأولى			
			٤٣٨ قانون ثيودوسيوس
٤٣٩ الوندال يستولون على قرطاجنة			
		٤٤٤ وفاة كيرلس الإسكندرى	
		٤٤٩ لاتركينيوم فى أفيسوس	
	٤٥٠ وفاة ثيودوسيوس الثانى		
٤٥١ معركة سهل موريك		٤٥١ مجمع خلقدونية	
٤٥٤ اغتيال أثتيوس			
٤٥٥ جايسريك ينهب روما			
		٤٦١ وفاة ليو الكبير	
٤٦٨ ارتقاء يوريك			
٤٧٢ وفاة ريكيمير			
٤٧٦ خلع رومولوس أوغسطولوس			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
٤٨١ ـ ٥١١ عهد كلوفيس		٤٨١ الشقاق الدينى بين روما والقسطنطينية	
		٤٨٢ زينون يصدر رسالة الاتحاد	
			ح ٤٨٣ وفاة سيدونيوس أبوللينياريس
٤٨٦ كلوفيس يهزم سياجريوس			
٤٨٨ القوط الشرقيون ينطلقون نحو إيطاليا			
	٤٩١ ارتقاء أناستاسيوس الأول		
٤٩٣ ـ ٥٢٦ حكم ثيودوريك بإيطاليا			
٤٩٦ كلوفيس يهزم الألمان		٤٩٦ تعميد كلوفيس	
ح ٥٠٠ اللومبارديون بين الثيس والدانوب			
			٥٠٦ صدور قانون ألاريك
٥٠٧ معركة فوجلى. كلوفيس يفتح اكيتانيا			
٥٠٨ استيلاء القوط الشرقيين على بروفانس			
	٥١٨ ارتقاء جستين العرش	٥١٨ نهاية الانشقاق بين روما والقسطنطينية	
			٥٢٣ إعدام بوئيثيوس
	٥٢٧ ارتقاء جستنيان		
			٥٢٩ إغلاق مدارس أثينا
			٥٢٩ إنشاء دير مونتى كاسينو
٥٣١ الفرنجة يدمرون المملكة الثورنجية	٥٣١ ـ ٧٩ عهد كسرى		
٥٣٢ ـ ٤ الفرنجة يفتحون برجنديا			
	٥٣٣ بلساريوس يفتح إفريقية		٥٣٣ نشر الموجز القانونى

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
	٥٣٦ ـ ٧ بليساريوس فى روما		٥٣٧ بناء كنيسة القديسة صوفيا
	٥٤٠ الفرس يستولون على أنطاكية		
	ح ٥٥٠ الآفار والبلغار على الدانوب الأدنى	ح ٥٥٠ وفاة بندكت من نورسيا	
٥٥٢ الفرنجة يخضعون بافاريا	٥٥٢ نارسيس يعيد فتح إيطاليا	٥٥٣ مجمع القسطنطينية	
	٥٥٤ القرار التنظيمى		
	٥٦٥ وفاة جستنيان		ح ٥٦٢ وفاة بروكوبيوس ح ٥٦٥ كولومبا يؤسس دير أيونا
	٥٦٦ ـ ٧ اللومبارد والآفار يدمرون مملكة الجيبيد		
٥٦٧ تقسيم فرنسا إلى أوستراسيا ونوستريا وبرجنديا			
٥٦٨ اللومبارديون فى شمال إيطاليا			
		ح ٥٧٠ مولد محمد (ص)	
٥٧٥ـ٦١٣ وصاية برنهيلدا على العرش			
٥٨٤ ـ ٩٠ أوثارى ملكا على اللومبارديين			ح ٥٨٤ وفاة كاسيودوراس
٥٨٥ نهاية مملكة السويف فى شمال أسبانيا			
		٥٨٦ ريكارد حاكم أسبانيا القوطى الغربى يعتنق الكاثوليكية	
٥٩٠ ـ٦١٦ اجيلولف ملكا على اللومبارد		٥٩٠ جريجورى الكبير يتولى البابوية	

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
			٥٩٤ وفاة جريجورى أسقف تور
		٥٩٧ نزول أوغسطين	٥٩٧ وفاة كولومبا
		٦٠٣ اللومبارديون يعتنقون الكاثوليكية	
		٦٠٤ وفاة جريجورى الكبير	
	٦١٠ ارتقاء هرقل العرش		
٦١٣ اتحاد أوستراسيا وبرجنديا			٦١٣ تأسيس دير القديس جال
	٦١٤ الفرس يستولون على دمشق وبيت المقدس		
			٦١٥ وفاة كولمبان مؤسس ديرى بوبيو ولكسول
	٦١٩ الفرس يغزون مصر		
		٦٢٢ الهجرة النبوية	
		٦٢٢ ـ ٨٠ معركة وحدة إرادة المسيح	
	٦٢٦ حصار الآفار والفرس للقسطنطينية		
		٦٢٧ نورثمبريا تتنصر	
	٦٢٨ هرقل يهزم الفرس نهائيا		
٦٢٩ ـ ٣٩ حكم داجوبرت			
		٦٣٢ وفاة محمد (ص)	
	٦٣٣ ـ ٩٣ حكم بيزنطة بأرمينية		
	٦٣٤ خلافة عمر		
	٦٣٤ العرب يغزون فلسطين		
	٦٣٦ معركة اليرموك		٦٣٦ وفاة إيزيدور الأشبيلى
		٦٣٦ صدور وثيقة الإيمان الجديد (Ekthesis)	
	٦٣٧ معركة القادسية		
	٦٣٩ ـ ٤١ العرب يفتحون أرض الجزيرة		

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
	٦٤٢ سقوط الإسكندرية		
	٦٤٢ ـ ٣ العرب يفتحون فارس		
٦٤٣ ـ ٥٦ جريموالد ناظراً للقصر فى أوستراسيا			
	٦٤٧ العرب يفتحون طرابلس		
		٦٤٨ صدور قرار الإمبراطور المعروف بالصورة (Type)	
	٦٤٩ العرب يفتحون قبرص		
	٦٦١ ـ ٧٥٠ خلافة الأمويين بدمشق		
	٦٦٤ العرب يغزون البنجاب	٦٦٤ مجمع هويتبي	
		٦٦٩ ـ ٩٠ ثيودور أسقف كنتربرى	
	٦٧٣ العرب يهاجمون القسطنطينية		
		٦٧٨ بدء تنصر فريزيا	
		٦٨٠ مجمع القسطنطينية	
ح ٦٨٠ الصلح بين اللومبارد والبيزنطيين			
٦٨٣ مقتل ابروين			
		ح ٦٨٦ تنصير مملكة ساسكس	
٦٨٧ معركة تروى			
		ح ٦٩٠ ـ ٧٣٩ ويليبرود فى الأراضى المنخفضة	٦٩٠ وفاة بندكت بيسكوب
		٦٩٢ مجمع ترولا	
	٦٩٣ ـ ٨٦٢ حكم العرب بأرمينية		
			ح ٧٠٠ بيوولف
٧٠٩ ـ ١٠ حملات يبين على الألمان			٧٠٩ وفاة ألدهيلم

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
			ح ٧١٠ إنشاء المسجد الأموى بدمشق
٧١٢ ـ ٤٤ ليوتبراند ملكا للومبارد			
٧١٣ ـ ٣٤ العرب يفتحون أسبانيا كلها عدا استورياس			
٧١٤ وفاة بيبين			
		٧١٥ ـ ٣١ جريجورى الثانى	
	٧١٧ ارتقاء ليو الثالث (الإيسورى) العرش		
٧١٧ ـ ٤١ شارل مارتل محافظاً للقصر	٧١٧ـ١٨ حصار القسطنطينية		
٧٢٠ ـ ٥٩ العرب فى أربونة			
			٧٢٤ إنشاء دير ريشناو
	٧٢٥ ليو الثالث يبدأ حملة تحطيم الصور المقدسة		
		٧٣١ ـ ٤١ جريجورى الثالث	
٧٣٢ معركة تور بواتييه			
		٧٣٣ إخراج جنوب إيطاليا وصقلية واللبرية وكريت من التبعية الكنسية لروما	
٧٣٥ شارل مارتل يخضع أكيتانيا وجنوب برجنديا			
			٧٣٥ وفاة بيده
		٧٣٩ جريجورى الثالث يلتمس معونة شارل مارتل	
	٧٤٠ وفاة ليو الثالث		٧٤٠ صدور الإكلوجا
٧٤٣ ـ ٥١ تشلدريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين			

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
فى الغرب	فى الشرق		
٧٤٨ ـ ٨٨ تاسيلو آخر دوق مستقل لبافاريا			
	٧٥٠ سقوط الأمويين		
٧٥١ اللومبارديون يستولون على رافنا			
		٧٥٢ ـ ٧ استيفن الثانى	
٧٥٣ استيفن الثانى يعبر الألب			٧٥٣ وفاة يوحنا الدمشقى
٧٥٤ البابا يتوج بيبين		٧٥٤ وفاة بونيفاس مؤسس الكنيسة الجرمانية	
٧٥٦ عبدالرحمن أميراً لأسبانيا	٧٥٦ ـ ٦٥ الحملات على البلغار		
٧٥٦ وفاة ايستولف			
٧٥٧ ـ ٧٤ ديسيديريوس ملكا على اللومبارد			
٧٥٧ ـ ٩٦ أفا ملك مرسيا		٧٥٧ ـ ٦٧ بولس الأول	
٧٦٠ ـ ٨٨ بيبين يخضع أكيتانيا			
	٧٦٣ بغداد تصبح عاصمة الدولة العباسية		٧٦٣ تأسيس دير لورش
		٧٦٤ ـ ٧١ اضطهاد عبدة الصور	
٧٦٨ ارتقاء شرلمان وكارلومان			
٧٧١ وفاة كارلومان			
٧٧٢ ـ ٨٠٤ حروب السكسون			
٧٧٤ سقوط مملكة اللومبارد			
٧٧٨ معركة رونسيسفال			
	٧٨٠ ـ ٩٠ وصاية الإمبراطورة لإيرينى		
	٧٨٦ ـ ٨٠٩ هرون الرشيد		

الأحوال السياسية		الأحوال الدينية	الأوضاع الحضارية
في الغرب	في الشرق		
٧٨٧ شرلمان يخضع بنفنتو ٧٨٨ قيام مملكة الأدارسة بمراكش		٧٨٧ إيرينى تعيد عبادة الصور	
٧٩١ ـ ٦ حملات شرلمان على الآفار		٧٩٠ الرسائل الشرلمانية	٧٩٣ الدانمركيون ينهبون دير لندس فارن
		٧٩٤ دايت فرانكفورت ٧٩٥ ـ ٨١٦ ليو الثالث	
٧٩٧ مرسوم سكسونيا ح ٨٠٠ استقلال تونس ٨٠٠ تتويج شرلمان	٧٩٧ مصرع قسطنطين السادس		ح ٨٠١ وفاة بولس الشماس
	٨٠٢ ـ ١١ نقفور الأول إمبراطورا		٨٠٤ وفاة ألكوين
	٨٠٩ غزوات البلغار		
٨١٣ لويس التقى يتوج في آخن ٨١٤ وفاة شرلمان	٨١٤ وفاة كروم حاكم البلغار	٨١٥ مجمع القسطنطينية وتحطيم الصور	٨٢١ وفاة ثيودولف الأورليانى
		٨٢٦ وفاة ثيودورس رئيس دير ستوديون	

الفهرس الأبجدى

(ا)

آثنيوس ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١١
آخن ١٥٦ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٩
أبو بكر ٢٥٩
أبو العباس السفاح ٢٦٢
آبيون ٦١
الاتحاد (كتاب)
أتولف ٢٨٧
آتيلا ٥٦ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٩
أجوبارد ٣٨٦
الإخميتيون ٢٦٧
الأدب
الإسلامى ٢٧٣
السريانى ٥٧
القبطى ٥٧ ، ٦١ ، ٣٢٣
إدريس بن عبد الله ٢٦٣
أدرنة (معركة) ٤٢ ، ٢٦ ، ٨٥ ، ١١٠
أربوجاست ٨٥
أرستوفانيس ٦٥
أرسطو ٣٣ ، ١٧٢
أركاديوس ٣٧ ، ٥١ ، ١٠٢ ، ١١١
إرلندة ١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٢٨
إرمانريك ٨٣
أريوس ٦٨ ، ٦٩ ، ١٣١
الأريوسية (مذهب) ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ١٣١ ، ١٩٥ — ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٣٢٦
أسبار ١١١ ، ١١٢
أسبانيا ١٦ ، ١٩ ، ٤٠ ،
الوندال بها ٧٥ ، ٩١
القوط الغربيون بها ٨٧ ، ٩١ ، ٢٥٥
علاقة جستنيان بها ١٨٦
الفتح الإسلامى ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤
شرلمان وعلاقته ٣٥٣
إسبوليتو ٣٣٥ ، ٣٧٠
استرابون ١٨
الاستضافة (نظام) ١١٨ ، ١٢٤
استيليكو ، ٣٨ ، ٤١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ٢٨٧
الإسكندر ٢٣
الإسكندرية ١٦ ، ٢٩ ، ٦٢ ، ١٦٠ ، ٢٥٣
اسكندبناوه ٧١ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٢٩٨
الإسلام ٩ ، ٢٣٩
الإغريق
لغتهم ١٩
هجرة السكان ٢٠
بسوريا ومصر ٢٠

القوط الغربيون ببلادهم ٤١ ، ٨٤ ، ١٠٥
الصقالبة بينهم ٢٩١
الآفار : ٢١٦ ، ٢٨٨
علاقتهم ببيزنطة ٢٣٣ ، ٢٣٤
باللومبارد ٢١٦
وبالصقالبة ٢٩٥ ، ٢٩٨
وبالفرنجة ٢٩٨ ، ٣٥٤
إفريقية ، ولاية ١٦
الحدود ٤٠
الوندال فيها ٩١
إعادة فتحها ١٦٩ — ١٧٢
هرقل يبحر منها ٢٣١
الفتح الإسلامى لها ٢٥٤ — ٢٥٥
الأسر الإسلامية المالكة ٢٦٢
أفلاطون ٣٣
الأفلاطونية الحديثة ٣١ ، ٣٢
أفلوطين ٣١
إفيسوس (مجمع) ٧٠
أكاكيوس ٧٤
أكيتانيا ١٦ ، ٧٦ ، ٩١ ، ١١٣ ، ٣٧٠
ألاريك الأول ٣٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٩٤
ألاريك الثانى ١١٦ ، ١١٩ ، ١٩٥
الآلان ٧٦ ، ٩١ ، ٩٧
الألامان ٤١ ، ٧٥
ألفريد ١٢٧
ألكوين ٢٩١ ، ٣٣١ ، ٣٤٧ ، ٣٦٦
إلليرية ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٧
أمالاسونثا ١٣٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨
أمبروز ١٨٥
الإمبراطورية الرومانية ٢١ ، ٢٦
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ٢٢ ، ٣٧
أموداريا ٤٣
الأمويون ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧
أناستاسيوس الإمبراطور ٥٠ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٧٨
الأنجلوسكسون
غزواتهم ٢٨٣ ، ٢٨٤
ممالكهم ٢٨٥
نظمهم ٢٨٦
عادتهم ٢٩٢
الانشقاق الصغير ٢٠١
أنطاكية ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ١٥٦
أنطونيوس ٧٣
إفيسوس ٢٩
أنيكى (أسرة أنيكيدس) ٦١
الأوجستيوم ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٦٤
أورليان ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧
أودواكر ٣٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦
أوستراسيا ٣١٤

أوسونيوس ٦١، ٦٤ ، ٦٧ ، ٣٦٠
أوغسطس ١٥ ، ٢٣ ، ٤٣ ، ٢٠٤
أوغطسين ١٥ ، ٣٦ ، ٢٩ ، ٣٢٩
٣١٨
أوغسطين من كانتربرى ٢٢٦ ،
٢٩٠ ، ٣٢٨
أوفا ٢٨٦ ، ٣٤٤
أوفيد ٣٦٤ ، ٣٦٩
أولفيلاس ١٣١
أيامبليكوس ٣٢
إيزيدور الأشبيلى ٢٩٦
أيستولف ٣٣٩
إبسوريا والإيسوريون ٤٧ ،
الأسرة ٣٠٠
إيطاليا ١٦ ، ٢٠ ، ٢٥
الآريك بها ٨٤ - ٨٥ ، ١٠٦
أتيلا بها ٩٧
تحت ثيودوريك ١٢٤
إعادة فتحها ١٧٨ ، ١٨٤
إيطاليا البيزنطية ٢٠، ١٨٥-١٨٦،
٢١٦ — ٢١٩
اللومبارد ٣٣١
الفرنجة بها ٣٣٦ ، ٣٣٩
آينهارت ٣٦٩ ، ٣٧٠

(ب)

البابوية
حتى القرن الرابع ٢٦ - ٢٧ ، ٦٨
مجمع خلقدونية ٧٢
ثيودوريك والبابوية ١٢٧-١٣٨
جستنيان معها ١٨٧
اللومبارد معها ٢١٣
مناهضة عبادة الصور معها
٣٠٤ - ٣٠٥
الكارولنجيون معها ٣١٧
تطورات بالقرنين السابع والثامن
٣٢٦
جريجورى الكبير ١٨٧، ٣١٧ ،
٣٢٦ ، ٣٨٨
بانريك ٤١
باخوميوس ٧٣
البارثيون ٢٤ ، ٤٥
باسيليوس ٧٣
بافاريا ٧٥ ، ٣٠٩ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠
البحر الأحمر ١٨
البرابرة ١٧ ، ٢٥ ، ٤٢ ، ٧٥
برانهيلدا ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٣١٢ ،
٣١٣ ، ٣٤٣
البربر ٢٠٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
برترادا ٣٤
برجنديا والبرجنديون
على الراين ٤١، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٤ ،
١١٠
فى سافوى ١١٤ ، ١٢٧

متحالفون مع الفرنجة ١٣٠، ١٣٢
تحت الميروفنجيين ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣
ممالكهم المستقلة ١٠٨ ، ١٣٦ ، ٣٧٠
برقة ٤٣ ، ٧٤
برودونتيوس ٦٥
بروفانس ١٦ ، ٤٢ ، ١٢٩
القوط الغربيون بها ١١٢-١١٤، ٣٣
القوط الشرقيون بها ١١٥، ١٢٩، ١٣٣
الفرنجة بها ١٨٥
غارات المسلمين ٢٥٦
حكم الكارولنجيين ٣١٥
بروكوبيوس ٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢
بريتانى ٤١
بريسكوس ٦٥
بريطانيا ١٥ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٧٥ ، ٢٨٣ - ٢٩٠
بعلبك ١٩٦
بغداد ٢٦٢ - ٢٦٥ ، ٢٧٥
بلاد العرب ١٦ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ، ٢٣٩ - ٢٤١
البلغار ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ، ٢٩٨ — ٢٩٩ ، ٣٠٢
البليون ٢٠٢
بليدا ٩٥ ، ٣٣١
بليساريوس ٤٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٢١١
بنجايوس ٦٤
بنديكت ١٨٥
بنيفنتو ٢١٣ - ٢١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٧٠
بواتييه (معركة) ٨٨ ، ٣١٥
بوثيوس ١٢٧ ، ١٣٩ ، ٢٨٧
بوردو ٨٨
بولخيريا ٧٢
بونطش ٢٠٧
بونيفاس ٩٢ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٥١
البونيون ٤٣
بوهيميا ٢٩٨
بيبين الأول ٣٣٩
بيبين الثانى ٣١٤
بيبين الثالث ٣٣٩
بيده ٢٩١ ، ٣٦٥
بيزنطة (انظر القسطنطينية)
بيسكوب ٣٣١ ، ٣٦٥
بيلاجيوس ٢٠٠

(ت)

تاكيتوس ٤٧ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٣٨٤

التجارة
الرومانية ١٧ ، ٢٥ ، ٢٤١
الميروفنجية ٣٣٩
الفارسية ١٦٢
الإسلامية ٢٤١ — ٢٧٠
الكارولنجية ٢٧١ ، ٢٧٢
البيزنطية ١٦٠
الخلاصة ٣٧٥
تحطيم الصور ٣٣٨ ، ٣٤٣
تدمر ٢٥
تراجان ٣٧ ، ٥٨ ، ٨٤
تراقيا ٣٩
ترترى (معركة) ٣١٣ ، ٣١٥
الترك ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٧٦
ترولان (مجمع) ٣٣٥
ترويس (معركة) ٩٣
تريف ٧٩ ، ١٢١
توتيلا ١٧٧ ، ١٨١
التوحيد المشوب ٣١
تور (معركة) ٢٥٦ ، ٣١٣
تيبريوس الثانى ٢٢٩
التيوتون ٤١

(ث)

ثورنجيا ١٢٧
ثوسيديدس ١٥٢
ثيوداهاد ١٧٧ ، ١٧٨
ثيودلندا ٣٣٢
ثيودور الإستوديوى ٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣١٩
ثيودورا (الإمبراطورة) ١٥٠ ، ١٧٢ ، ٢١٠ ، ٣٠٥
ثيودروريك استرابون ١١٢
ثيودوريك الأكبر ٨٣،٣٩ ، ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٧٧ ، ٣٣١ ، ٣٧١
ثيودوسيوس الأكبر ٢٩،٣٧،٤٢ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ٣٤٧
ثيودولف الأورليانى ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩

(ج)

جائناس ١٠٧ ، ١١٠
جالابلاسيديا ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٨
جالينوس ٢٦
جاندوباد ١٣٥ ، ١٣٦
جراكوس ٢٣٣
جرمانيوس ١٧٥
الجرمان ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٨
ألمانيا ٧٧ — ٨٢
الملكية عندهم ٧٧ ، ٧٩ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٦
الضرائب ٣١٦ ، ٣٥٥
القوانين ٣١٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٣
مذهبهم الآريوسى ١٣٠
جرود ٢٠٤

جريجورى (أسقف تور) ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٦٠
جريجورى الكبير ١٨٧ ، ٢٢٠-٢٢٧ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٦
جريموالد ٣٢٥
جستنيان ٢٦ ، ٤٧ ، ٧٢ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٥٠
القسم الثانى بمواطن متفرقة
فتنة نيقا ١٦٩
سياسته الدينية ١٩٥
خلقه ١٦٩
حروبه مع فارس ٢٠٨
حروبه مع الوندال ١٧٤
حروبه مع القوط ١٨١ ، ١٨٢
نظامه الإدارى ١٨٨ ، ١٩٠
تشريعه ١٩١
ديبلوماسيته ، وفاته ٢١١
جستنيان الثانى ٣٣٧
جستين الأول ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥
جستين الثانى ٢٢٨
جزريك ٣٧ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٣٣
الجلادون ٥٧
جندريك ٨٣
جوديجيل ٩٠
جوفينال ٦٣
جوليان ٣٠ ٣٣ ، ٤١ ، ٨٩ ، ٢٠٧
جيبون ١٦٢
جيبيتشنج ٨٨
جيروم ١٧ ، ٤٠ ، ١٨٥ ، ٣٨٨
جيليمر ١٧٣ ، ١٧٤
جيبيد ٧٥ ، ٩٥ ، ١٣٠ ، ٢١٢

(ح)

الحبشة ١٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣
حدود الراين ٧٧
حلبة السباق ٤٩
حمير ٢٠٢
الحيرة ٢٧٠

(خ)

الخضر والزرق ١٤٨ ، ٢١١
خلقدونية
مجمع ٧٣ ، ١٩٩
الفرس فيها ٢٣٠ - ٢٣٣
العرب فيها ٢٥٧

(د)

داجوبرت ٣١٣
داماسيوس ٦٨
دارا ٢٢٩
داكيا ٧٥ ، ٨٤ ، ٢٩٥
الدانوب وحدوده ٤٢ ، ٢٤٩ ، ٣١٢
دسيدريوس ٣٤٠

دقلديانوس ٢٦، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٣
٨٥ ، ٣٧٨
دمشق ١٦، ١٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٧١
دولة المدينة ٥٨
الدوناتى (الانشقاق) ٥٦ ، ٢٢٤
الدوناتيون ١٧٤ ، ١٩٧
ديدالوس ٦٤
الدية ١١٦ ، ١٩٠ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢
الديرية ٧٣ ، ٧٤ ، ١٧٢
الديكيو ٣٤١
ديوسقوروس ٧١

(ر)

راداجايسوس ٩٩
رافنا ٥٢ ؛ ١٠٨ ، ١٥٥ ، ٢١٧
قصة الإمبراطورية ٣٩ ، ٥١
حصار القوط الشرقيين لها ٨٣
بليساريوس بها ١٧٩
بيزنطة (علاقتها) ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٣٣٤
استيلاء اللومبارد ٣٣٩
منحها للبابوية ٣٣٩
تحت حكم ثيودوريك ١٢٤
الراين (حدود) ١٥ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٣٥١
الرطازات ٣٠
الرقيق ٣٨٤
الرمزية (مذهب) ٣٩٩ ؛ ٤٠٠
رهبانية (انظر ديرية) ٧٣
الرواتيون ٣١
روفينوس ١١٠
روما (مدينة) ١٥ ، ٢٠
اضمحلالها ١٨٤ ، ١٨٦
سقوطها ٥٦
تحت حكم ثيودوريك ١٢٤
بليساريوس بها ١٧٩
بيزنطة (علاقتها) ٢١٦ ، ٣٣٤
البابوية (تحت) ٢٩، ٣٦٠ - ٣٦١
الوثنية بها ٢٨
الرومانيون ٢٩٦
رومولوس ٤٠، ١٠٩
رونسيسفال ٣٥٥
ريكاريد ١٣٦ ؛ ٣٢٦
ريكيمير ١٠٦ ، ١٠٩
رينهارت ٣٦٤

(ز)

الزراعة ٢٥ ، ٣٨ ، ٣٨٢
زنوبيا ٢٥
زينون (الإمبراطور) ٢٧ ، ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٧٧
زيوس ٣٠

(س)

سابيليوس ٦٩

الساسانيون ٤٤، ٢٠٤ ، ٤٠٨ ، ٢٤٩
سالفيان ٥٦ ، ٣٨٨
سالونيكا ٢٩٥
سامو ٢٩٦
ستيفن (البابا) ٣٤٠
سجسموند ١٢٩
سرجيوس ٢٣٤
سرميوم ٩٨ ، ١٢٩
سكسونيا ٣٤٩ ، ٣٥٢
السكسون (مرسوم إعلان التسليم) ٣٥١
السكسونى (الساحل) ٤٠
السناتو (مجلس الشيوخ) ٤٩ ، ١٢٤ ، ١٤٣
سقيط ٧٣
سمعان العمودى ٦٧
سوريا ٢٢
لغتها ٢٠
تجارتها ١٦ ، ١٧ ؛ ٢٦ ، ٣٧٥
سكانها ٢٠
منتجاتها ١٥
قوميتها ١١٠
غارات الفرس ١٨٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣١
الفتح الإسلامى ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦١
سولومون ١٧٥
السويف ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩
سياجريوس ١١٤
سيد الجند ٥١ ، ٨٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٧٧
سيدونيوس ٧٤ ، ٨٣ ، ١٢٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩
السيرك ١٤٩ ، ١٥٢
سيفيروس ٩٢
سيلان ١٨ ، ٦٢
سيماخوس (البابا) ١٣٨
سيماخوس (السناتور) ١٣٩
سيماخوس (زعيم الوثنية) ٦٦ ، ٦٧
سينيسيوس (أسقف برقة) ٤٣ ، ٧٤

(ش)

شارل مارتل ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٩
شرلمان ١٥٦ ، ٢٨٦ ، ٣٤٠
بإيطاليا ٣٤٤
تتويجه ٣٤٦
حروبه ٣٤٨ ، ٣٥٥
حكومته ٣٥٦
خلقه ٣٦٩
بلاطه ٣٦٤ ، ٣٦٨
وفاته ٣٦٩
سياسته ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٨٩

شيشرون ١٨٥
الشيعة ٢٦١
شيلبريك ٣١٢

(ص)

الصرب ٢٩٨ ، ٣٠٥
الصقالبة ٢٩٨ ، ٣٠٥
على البريبت ٧٦ ، ٢٩٣
تحت القوط الشرقيين ٩٧
بالبلقان ١٨٩ ؛ ٢٢٨
تحت الآفار ٢٦٥
توسعهم ٢٩٥
على الإلب ٣٥٢
صناجلة ١٢٤
الصور (تحطيمها) ٢٠٢
صوفيا (كنيسة القديسة) ١٤٣ ؛ ١٥٣ ، ١٥٥
الصين ١٨ ، ١٦٠ ، ٢٥١ ، ٣٧٤

(ض)

ضريبة ٥٤
الضيافة ١٨٨ ، ١٢٤ (أنظر استضافة)
الضيعة (ضياع) ٣٨٢ ؛ ٣٨٥

(ط)

الطبقات الاجتماعية ٣٨٣
الطبيعة الواحدة (مذهب) ٦٨ ، ٧٢ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ٢٣٠
طرابيزون ٢٧٢

(ع)

عبادة الإمبراطور ٣٠
العباسيون ٢٦٤
عثمان ٢٥٩
العرب ١١٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥
على بن أبى طالب ٢٦٠
عمر بن الخطاب ٢٥٩
عمرو بن العاص ٢٥٣
العملة (الرومانية) ٢٦،١٦٠ ، ٣٧٥

(غ)

غالة ١٦،٢١،٢٥،٤٧ ، ٧٧ ، ١٠٨

(ف)

فارس ٢٠ ؛ ٤١ ؛ ١١٠
أثرها فى روما ٢٦ ، ٤٨ ، ١٥٧
جستين وجستنيان ١٦٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ - ٢١٠
هرقل ١٣١
الفتح الإسلامى ٢٤٧ ؛ ٢٤٩
فى حكم العباسيين ٢٦١ - ٢٦٢
فاروس ٨٥
فاكوندوس ٢٠١
فالنز ٣٧
فالنتنيان الثالث ٣٧ ، ٤١ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧
فاليريان ٢٤
الفرات ٤٣

فرانكفورت (مجمع) ٣٤٥
فرجيل ١٨٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩
فردان (معاهدة) ٣٧٣
فرفوريوس ١٢٧
الفرنجة ٤١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٣٠٧
السالیون والريبواريون ٨٩ ، ١٥٥
على الراين ٧٥ ، ٨٩
فى غالة ٧٦ ، ١١٣
غارتهم الإيطالية ٢١٣
القرن السادس إلى السابع
٣٠٧ - ٣٢٣
القرن الثامن ٢٨٨ - ٣٠٢
فرنسا
القرن الثالث ٢٢ - ٢٣
الوندال بها ١٠٦
فتح الفرنجة ١١٣
الميروفنجيون ١١٦ - ١٢٢
القرنان السادس والسابع
٣٠٧ - ٣٢٥
الكارولنجيون ١٥٤ - ٣٧٠
فسبازيان ٨٥
الفصول الثلاثة ١٩٩ ، ٢٠٠
فم الذهب (يوحنا) ٦٣
الفلاح الصغير ٦٠ ، ١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٨٣
فلافيانوس ٦٦
الفن
الإسكندرى ١٥٩
الكلتى ٣٢٨
الميروفنجى ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ٣٢٣
البيزنطى ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ٣٩٢
القوطى ١٥٨
الإيرانى ١٥٨ - ١٥٩
الإسلامى ٢٧٥
الرومانى البربرى ٢٩٠
الأنجلوسكسونى ٢٩١
الكارولنجى ١٥٦ ، ١٥٩
المسيحى ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٨
الخلاصة ١٥٥
فوجل (معركة) ١٢٩ ، ١٣٥
فوقاس ١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨
فيجيليوس ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
فيدياس ١٤٧
الفيكنج ٨١ ، ١٩١

(ق)

القاديسية (معركة) ٢٤٦ ، ٢٥٠
قانون جستنيان ١٩١ - ١٩٢
القانون القبلى ٣٨٦
القانون الكارولنجى ٣٦٠
القانون اللومباردى ٣٣٣
قرطاجة ٢٠ ، ٩٣ ، ١٧٤ ، ٢٣١ ، ٢٥٤

قسطنطين الأكبر ٢٦، ٤٤ ، ٦٠ ،
٢٢٠ ، ٣٧٨
منحته ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩
قسطنطين الخامس ٣٠٥
القسطنطينية
تأسيسها ٢٨
نموها ٣٩
أوليتها الإكليروسية ٣٩
مجمعها الدينى ٧٠
أزمتها ضد الجرمان ٨٤ ، ١١٠
وصفها ١٤٦ - ١٤٨ ، ١٦٤-١٦٨
حصار الآفار والفرس لها ١٦٨ ،
٢٣١ - ٢٣٣
الحصار الإسلامى ٢٥٧ ، ٣٠٠
قسطنطين (المغتصب) ٤٢
قسطنطيوس (القائد) ٨٤ ، ١٠٨
القلزم ١٦١
القوط الشرقيون
على الدنستر ٧٦
بإيطاليا ١٣٨
أصلهم ٧٥
تحت الهون ٩٣
غزواتهم ٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٣
بإيطاليا ١٧٧
القوط الغربيون
على الدانوب ٨٤ ، ١١٣
غزواتهم ٨٤ - ٨٩ ، ١١٠
بفرنسا وأسبانيا ١١٣ ، ١٣٣ ، ٣٢٦
فتح المسلمين لهم ٢٥٤
قباذ ٢٠٨
القيروان ٢٢٥
قيصر ٧٥ ، ٧٨
قيصريوس ١٣٤ ، ١٣٦

(ك)

كتاب المشبكات ٧٢ ، ١٥٦ ، ٣٥٨
الكارولنجيون ٣١٢ - ٣١٨ ،
٣٣٩ - ٣٥٣
كاسيودوراس ١٢٦ ، ١٨٥ ، ٢٢٧
كراكلا ٢٠
الكروات ١٩٨
كريسافيوس ٧٢
كسرى ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣
الكلت (الفن) ١٦ ، ٥٥
الشعوب ٧٥
الزراعة ٣٨٠
كلوديانوس (الشاعر) ٣٩، ٦٧
كلوديوس ٥٧
كلوفيس ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ،
٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٧٢
كوزماس ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢١٩
كولخيس ٢٠٥
كولومبا ٣٢٧

كوينتليان ١٨٥

(ل)

لازيكا ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩
لغة ٦١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢
لورانس ١٢٦
اللومبارد ٧٦ ، ٨٢ ، ٢١٣
بإيطاليا ٣٣١
البابوية ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣
فتح الفرنجة ٣٣٩
لونجينوس ٢٠٢
لويس الورع (التقى) ٣٧٠ ، ٣٧٣
ليبانيوس ٦٥
ليجير ٥١٤
ليسينيوس ١٤٧
ليو الإيسورى ٢٥٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ؛
٣٠٦ ، ٣٦٧
ليو الكبير (البابا) ٧٢ ، ٩٧ ، ٣٨٨
ليوتبراند ٣٦٧ ، ٣٣٩

(م)

ماجوريان ٦٠ ، ١٠٩
ماراتون ٢٤
مارتيال ٦٣
ماركوس أوريليوس ٢٣
ماركومان ٨٩
المتبربرون (انظر برابرة)
مجلس الشيوخ (فى سناتو)
مجمع تزولا ٣٣٧
مجمع فرانكفورت ٣٤٥
مجمع اللصوص ٧١
مجمع نيقية ٦٨ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ٣٤٥
مجمع هويتبي ٣٢٩
محمد (ص) ٢٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٧٠
المدائن ٢٦٦
المدينة ٢٤٥ ، ٢٥٩
مرسوم إعلان تسليم السكسون ٣٥١
مرسيا ٣٢٩ ، ٣٦٦
مرقيان ٦٣
مزدك ٢٠٨
المسيحية ٢٨
مصر ٢٢
التجارة والزراعة ١٥ — ١٨
٥٥ ، ٢٧٠
السكان ٢٠ - ٢١
الدين ٢٥ - ٢٦ ، ٧٠
الثقافة ٢٠ ، ٥٥
النظام الإدارى ٦٠ ، ٢٦٢
الديرية ٧٤
التبشير البيزنطى ٢٠١
الفتح الإسلامى ٢٣١ ، ٢٥٠
الفتح الفارسى ٢٣١
الفتح الفاطمى ٢٦٢
معاوية ٢٦٠

المغاربة ٤٣
مقدم الجند (فى سيد)
مقدونيا ٤١ ، ٧٦
مكة ٢٤٣ ، ٢٤٥
موريالك (معركة) ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٧
موريقيوس (موريس) ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨
مومسن ٤٩
ميدان السباق ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩
الميروفنجيون ١١٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٥

(ن)

نارسيس ٤٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢١٣
نحل الخفايا والأسرار ٢٨
النساطرة ومبشروهم ٢٢٨
نصيبين ١٦٣
نظار القصر ٣١٣
النقابات ٥٧ ، ٢٢٠
نفس ٦٧
النوباد ٢٠٢
نورثمبريا ٢٢٩ ، ٣٦٦
النورمان ٢٩٢
نوستريا ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣١٤
نوسطوريوس ٧٠
نيبوس ١٠٩
نيبيلونجنليد ١٠٨
نيقا (فتن) ١٦٩
نيكيتيوس ١٢١

(هـ)

هادريان ١٢٢ ، ٣٦٦
الهرطقة (الهراطقة) ١٩٥
هرقل ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩ ، ٣١٣
هرقلية (أسقفية) ٣٩ ، ٧٠
هرون الرشيد ٢٧١ ، ٣٦٨
هلدبراند ٣٤٧
هلديباد ١٧٧
الهللينستى ١٦
الهند ١٨ ، ٢٥
هوراس ٦٣ ، ٨٥
الهون ٤٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٠٤
هونريك ١٣٣
هونوريوس ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥١ ؛ ٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٦
هويتبى ٣٢٩
هيرودوت ٢٦٧
الهيرول ٧٦ ، ٩٨ ، ١٢٩

(و)

واليا ٨٨
الوثنية ٢٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٧٤ ، ٢٢٤
وحدة طبيعة المسيح ٦٨ ، ٧٢

وسكس ٣٦٦
الوندال ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ١٠٦
على الراين ٤٠
على الدانوب ٩٠
فى غالة وأسبانيا ٧٥ ، ٨٩
غزواتهم ٨٩ ؛ ٩٨
غاراتهم على صقلية ٩٨
علاقتهم بثيودوريك ١٢٩
بإفريقية ٥٧ ؛ ١٣٢
علاقتهم بجستنيان ١٤٦
ويتيجيز ١٨٠
ويدوكند ٣٥١

(ى)

اليرموك ٢٤٧ ، ٢٥٠
اليمن ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ١٤١ ، ٢٧٠
اليهود ١٩٧
يوتروبيوس ١٠٥ ، ١١٠
يوتيخوس ٧١
يوثاريك ١٣٠ ، ١٣٨
يوحنا التروجلى ١٧٥
يوحنا القبادوقى ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٩٠
يودوكسيا ١١٠
يوريك ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٣
يوليوس نيبوس ٥٠